

أريد لأطفالي إشباع حاجاتهم العليا والإحساس بأهدافهم

يظهر الشَّخص اللامحدود فهمًا قويًا لهدفه في معظم مجالات الحياة أو جميعها، وتمكَّنه نظرتَه الشمولية هذه من رؤية المعنى في كلِّ مكان، وهو غالبًا ما يكون مدفوعًا بقيم وحاجات عليا، عليه إشباعها. إنه يعطي الأولوية للبحث عن الحقيقة، والجمال، والعدل، والسلام دائمًا. وهو يقرر أنماط التطور اللاحقة التي سيسعى إلى تحقيقها، ويسمح للآخرين أن يفعلوا مثله. إنَّه عالمي النظرة بخصوص القيم وتحديد الهوية، معتزٌّ بالمنجزات المحلية عندما تسهم في خير الإنسانية. إضافة إلى أنَّه مدفوع فكريًا بفضوله وغرائزه الفطرية، باحثًا عن الحقيقة في مواقف الحياة المحتملة جميعها. إنَّه يهتدي بأنواره الداخلية فيما يقوم به، ويسعى وراء ما يعنيه هو، وليس من أجل مكافآت مالية خارجية. إنَّه لا يقيس قيمة أيِّ إنسان استنادًا إلى معيار الثروة والغنى، وإذا أصبح غنيًا في وقت ما، فسوف يكون ذلك مصادفة، في أثناء سعيه وراء هدفه. إنَّ الوجود، بنظره، جميل ورائع؛ لذا لا توجد لديه حدود لتنوع جمال هذا الكون. وهو يرى أنَّ جوهر الناس جميعهم جميل في أساسه، حتى إن كانت أعمالهم أو صورهم غير ذلك في بعض الأحيان. إنَّه يؤمن بقدسية الحياة، وأن حياة البشر كافة لها القيمة ذاتها. إنه على قناعة تامة باحتمال وقف الحروب، والعنف، والمجاعة، والأوبئة إذا ما اختارت البشرية ذلك. إضافة إلى أنَّه يقف حياته لتحسين حياة الناس قاطبة، وللقضاء على الظلم.

الإنسان كائن يبحث عن معنى - أفلاطون

يجب أن يشدّد هدفنا الرئيس في مساعدة الأطفال على اكتساب الإحساس برضا نفسي قوي في ظلِّ حياة هادفة، وفي غياب هذا الإحساس القوي بقيمته وأهميته، يصبح الفرد تائهًا دون هدف، وجاهلاً بسبب وجوده في هذا الحياة. وفي الوقت الذي قد يبدو هذا القول أقرب إلى رأي فلسفي من كونه الفصل الأخير في كتاب عن تربية الأطفال ليصبحوا أفرادًا لا محدودين، فإنني أؤكد أن بإمكانك فعل الكثير لمساعدة أطفالك على معرفة هدفهم في الحياة، وحمل قيمهم السامية في قلوبهم طوال مراحل نموهم جميعها.

وكي يكون أطفالك قادرين على الإحساس القوي بأهميتهم وهدفهم في هذه الحياة، عليك إدراك أنّ عليهم التّخلّي عن رغباتهم الشّخصية، والانخراط في خدمة الآخرين، وكذلك تعلّم كيفية الانتصار على أنفسهم، والتّوقّف عن تأكيد حاجاتهم المادية فقط، والتّخلّص من التفكير الأنانيّ، والانتقال إلى تأكيد ما فيه مصلحة الآخرين. ويجب أن يتعلّم الأطفال تدريجيّاً التّوقّف عن التفكير في أنفسهم، وكيف يتأثرون شخصياً بكلّ شيء يقومون به، وأن يحولوا اهتمامهم إلى أنشطتهم، وكيف ستساعدهم على تحسين حياة الآخرين. وعادة ما يشعر الإنسان بقيمته وأهميته في الحياة في أثناء مساعدة الآخرين بطريقة أو بأخرى، ولكن لا يعني ذلك نكران الذات والاستهانة بها، أو الاعتقاد بأنّ الآخرين مهمون أكثر منه؛ فالأمر أعمق من ذلك بكثير. إنّ الشّخص الذي يكون منكبّاً على عمله ومستغرقاً فيه، لا يجد وقتاً للتفكير في أثر ما يفعله فيه، إضافة إلى أنّه لا يلقى بالألّا إلى نظرة الآخرين إليه، ولا يفعل شيئاً لجذب انتباه من حوله أو كسب اعترافهم؛ فهو ما يراه مهمّاً له؛ لأنّ هذا يشعره بالسعادة والرضا الدّاخليّ، لذا فهو لا يبالى بالجوائز الخارجية أو آراء الآخرين. إنّ الوصول إلى هذه النقطة؛ حيث تعيش حياتك بناء على أنوارك الداخلية، وتشعر بالإثارة تجاه أنشطتك، وتتهمك تماماً في مهامك اليومية، وحيث إنّ ما تقوم به يسهم في جعل هذا العالم مكاناً أفضل للإنسان آخر على الأقل، هو المعنى الحقيقيّ للإحساس بالهدف في هذه الحياة. وكي تصل مع أطفالك إلى هذه المرحلة عليكم السّير بالخطوات المؤدّية إلى الإحساس بالهدف وأهميته.

من الضروري أن يقدّر الأطفال ذواتهم من داخلهم، لأن يتوقّعوا الحصول على ذلك من الآخرين، ولكن عليهم أولاً أن يمزّوا بخبرات (الأنانيّة) والمصلحة الدّائيّة، قبل التّخلّص من هذا كلّه، والتّصالح مع أنفسهم، وتأدية رسالتهم في الحياة، وهذا يتطلّب تقدير الذات كثيراً ليستطيعوا التّعبير عن حبّهم تجاه الآخرين واحترامهم لهم، ويجب أن يكون كلّ طفل واثقاً من نزاهته، وأن يخترن في داخله كثيراً منها لاستخدامها من أجل خير الآخرين.

ويجب أن يصلوا إلى المرحلة التي يسعدون فيها وهم يرون أصدقاءهم يحصلون على الجوائز والهدايا كما لو كانوا هم الذين يحصلون عليها. ويمكن غرس الإحساس بالهدف في نفوس الأطفال منذ نعومة أظفارهم، ويمكن أيضاً البدء بذلك الآن بصرف النّظر عن أعمارهم. إن اكتساب الإحساس بالهدف لا يعدو أن يكون أكثر من مساعدتهم على تبني اتجاهات نحو أنفسهم وعملهم (عمل الأطفال هو اللعب)، وأنشطتهم التي تسعى وراء الانطلاق إلى خارج الذات والانغماس كلياً في أنشطة الحياة جميعها. إنّ بإمكانك مساعدتهم على الوصول إلى تلك المرحلة الرائعة من حياتهم،

والتي يعرفون عندها سبب وجودهم، وشعورهم بالإثارة لكونهم يفعلون ما اختاروه لأنفسهم تماماً، ولا شك في أن هذه أكبر متعة يمكن أن يمرّ بها الإنسان. ولأطفالك الحق في معرفة الهدف من وجودهم؛ وهذه هي مهمة التربية الأبوية، وإذا نجحت في ذلك فسوف تشعر برضا غامر في داخلك تجاه سبب وجودك في هذه الحياة. وما بقيت في خدمة الآخرين، ومن بينهم أطفالك، فإنك تسهم في تغيير هذا العالم. وهذا هو سرّ الهدف من الوجود؛ جعل هذا العالم مكاناً أفضل للناس الذين يأتون من بعدنا.

ارتقاء سلّم الحاجات وصولاً إلى إدراك الهدف

قدّم لنا عالم النفس الشهير أبراهام ماسلو Abraham Maslow الذي كان أول من كتب عن البشر بتفأؤل، وعن قدراتهم الكامنة العظيمة بدلاً من وضع نظريات عن ضعفهم، نموذجاً فكرياً (إدراكياً) – باراداييم – للنظر في سلوكنا الأبوي، وقد سُمّي ذلك هرم الحاجات الإنسانية، مفترضاً أن على كل فرد أن يبدأ من أسفل الهرم لإشباع احتياجاته الأساسية، ومن ثمّ يصعد متدرّجاً إلى قمته حيث حاجة تحقيق الذات، في حين أُطلق عليها مصطلح حياة دون حدود. ومن أجل الوصول إلى مستوى تحقيق الذات، وهو المستوى الذي تناولته في كل فصل من فصول هذا الكتاب، يجب على الفرد أولاً إشباع حاجات متدرجة في سلّم وفق أهميتها، وأنه كلما صعد أكثر على هذا السلم، أصبح أكثر قدرة على الوصول إلى مستوى حياة هادفة، وسعيدة، وخالية من التوترات النفسية.

وبعيداً عن تفاصيل كل واحد من هذه الاحتياجات في هرم ماسلو، سوف أكتفي باستعراض أساسيات هذه النظرية. لقد كانت نظرية ماسلو مهمة جداً لي؛ إذ أثّرت كثيراً في تطوّر الشّخصي والمهني. وفي الحقيقة إن ماسلو في منحاه الإيجابي تجاه قدرة الإنسان اللامحدود قد تخطى الدراسات السابقة جميعها عن السلوك البشري. وما قام به ماسلو في نظريته هو دراسة المتفوقين وذوي الإنجازات العظيمة، لا دراسة الأشخاص الذين يعانون أمراضاً نفسية وعصبية. وتستند نظريته إلى حقيقة أنه يمكن تحفيز الإنسان بالنّموّ، وليس بحاجته إلى إصلاح عيوبه ونقائصه، وعلى هذا الأساس، يمكن لأيّ شخص أن يتقبّل ذاته كما هي في أي لحظة حاضرة على أنها كاملة وحيّة وسليمة. ويصبح الإنسان من خلال تقبّله لذاته مدفوعاً برغبته للنمو والتطور، فهو يشعر أنه كامل وقادر على النّموّ والتطور في آن واحد، لهذا ليس المطلوب إلى الإنسان أن يعترف بالنقص ليكون له هدف.

لقد شكلت هذه النظرية تحوُّلاً كبيراً، إضافة إلى أنها وضعت الأساس لطريقة جديدة تماماً لمساعدة الناس على تحقيق ذواتهم. وبعد أن درس حياة مئات الأشخاص الذي كان أداؤهم عند أعلى مستوى في مجالات الحياة جميعها، وضع (ماسلو) نظريته مستخدماً المنطق الآتي: إذا كان بعض الناس قادرين على الوصول إلى أعلى مستويات الحياة النشطة الناجحة تماماً، فلندرس حياتهم، ونتعلم أقصى ما نستطيع من هؤلاء المتفوقين؛ كيف يفكرون؟ ماذا يعملون؟ ما سماتهم؟ ودعنا نفترض أن البشر يستطيعون بلوغ هذه المستويات العليا عندما نحدِّد لهم هدفاً يسعون إليه. وبعبارة أخرى: أن نكون مُحفِّزين من الأشخاص العظام على مرِّ العصور، بدلاً من دراسة المرضى، ومحاولة مساعدة الآخرين كي يتغلبوا على نقصهم.

وهكذا، فقد طوَّر هرم الحاجات الإنسانية بحيث تستطيع الاهتداء إلى أين تقود أطفالك على هذا المسار؛ أي هل تبيحهم عالقيين عند درجة متدنية من درجات سلّم الحاجات مدة طويلة؟ أم تشجعهم على ارتقاء درجاته وصولاً إلى قمته، وهي أعلى مكان في السلم، أو ما يسمّى نقطة اللا حدود التي تعرفت إلى وصف موجز لها في بداية كلِّ فصل من هذا الكتاب؟ وهذا هو السلّم كما أفهمه، وكما يجب أن تفهمه وأنت تأخذ بيد طفلك في صعود الدرجات السفلى من السلم إلى أعلى مستويات الحياة.

ولن تجد المكان الذي يصعب تعريفه، الذي وصفته بإدراك الهدف، إلا عند الدرجات العليا في أعلى السلم. وعند تلك الارتفاعات الشاهقة فقط، سوف تشاهد الأطفال وهم يكتسبون قيم تحقيق الذات التي ستحميهم إلى الأبد من الوقوع فريسة: الاكتئاب، أو القلق، أو الأمراض العصبية العادية التي يعانيتها كثير من الناس الذين تشبَّهوا بالدرجات الأكثر قرباً من الأرض. تفحص درجات السلّم هذه لمعرفة كيف يمكنك مساعدة أطفالك على مواصلة الصعود، والتمتع في الوقت ذاته بما وصلوا إليه، وأقصد بهذا أن يكونوا مدفوعين برغبتهم في التطور والنمو، وحبّ كلِّ لحظة من لحظات حياتهم، وأن تكون لديهم أحلام وطموحات لحثهم على الصعود، دون أن يكرهوا المكان الذي يجدون فيه أنفسهم حالياً.

إنّ ما قدّمه لنا (ماسلو) كان علم نفس الوصول (Psychology of Arriving) (كما تحدثت عنه في الفصل السّابع) مقابل علم نفس الكدّ والكبح (Psychology of Striving). ويتكوّن كلٌّ واحد منهما من مستويات مختلفة. حاول أن تعرف هل كنت على المسار الصحيح لتحقيق هدفك في مساعدة

أبنائك على بلوغ ذلك المكان السحري في القمة، المسمى بالحدود، والبقاء فيه؟ وتذكّر أنّ عليهم المرور بالمستويات السفلى وهم أطفال ليصلوا فيما بعد إلى قمة الهرم.

الحاجات الفسيولوجية (العضوية)

من الطبيعي أنّ علينا أولاً تعلّم الاهتمام بحاجاتنا المادية العضوية الأولية، حتى إن كنا سنعيش يوماً واحداً فقط. وسوف يتعيّن عليك أن تبدأ مبكراً في مساعدة أطفالك على تحمل مسؤولية إمداد أنفسهم بضرورات هذا الجانب الحيوي. وتشمل الحاجات البيولوجية الأساسية المهمة للحياة: الحاجة إلى الهواء، والماء، والغذاء، والمأوى، والنوم. وسوف يموت الطفل إن لم تتوافر إحدى هذه الحاجات الأساسية، وهي تسمى حاجات البقاء؛ لأنّ الكائن الحي يحتاج إليها من أجل بقائه. ولأنك أحد الأسباب التي أدت إلى وجود الطفل في هذا العالم، فإنك تتحمل المسؤولية الكاملة عن توفير هذه الحاجات، وأهمها الحاجات المادية الضرورية لبقائه. إننا جميعاً نتحمل مسؤولية توفير هذه الحاجات الضرورية للأطفال في العالم، مهما كان موقعهم في هذا الكوكب.

ويجب ألاّ يحرم أيّ طفل من الهواء، والماء، والغذاء، والمأوى، والنوم، وإن مات طفل في هذا العالم جوعاً، فنحن في الواقع نموت جميعاً بموته، لذا يتعين عليك أولاً تلبية حاجاتك المادية، ومن ثمّ حاجات أطفالك، وبعد ذلك إشباع حاجات أطفال العالم الآخرين جميعهم. ومع أنّ ذلك قد يبدو لك عبئاً ثقيلاً، فإنه جزء من سبب وجودك على هذه الأرض. وليس المطلوب إليك إطعام الأطفال في بنغلاديش أو الدول الإفريقية التي تعاني الجفاف والمجاعة جميعهم، ولكن بإمكانك أن تبعث برسائل حبّ واهتمام إلى العالم، فلو أنّ كلّ إنسان قام فقط بما يستطيع القيام به، وتصرف بطريقة مسؤولة على هذا الكوكب، لما كانت هناك مشكلات في تزويد ضرورات الحياة للبشر كافة. لذا، بإمكانك فعل ما تستطيع فعله، وتحمل مسؤولية كلّ يوم تجاه أطفالك أولاً، وتجاه أطفال العالم بعد ذلك. شخصياً، أعرف أنّني لا أستطيع تغذية الأطفال الجوعى وإيواءهم جميعهم، ولكن باستطاعتي الكتابة والتحدّث عنهم، والتبرع لهم، وحثّ الآخرين على ذلك، ولن يمضي وقت طويل حتى يصبح صوتي جزءاً من فكرة أن أوانها. وكما قال الأديب والشاعر الفرنسي فكتور هوغو (1802 – 1885) مرة: «يمكن مقاومة جيش غازٍ، ولكن لا يمكن مقاومة فكرة حان قطافها». أعرف أنّي انتقلت إلى الحديث عن قضية عالمية، ولكنني مع ذلك أؤمن بقوة أنّ أيّ شخص يهتم بأطفاله، عليه الاهتمام بأطفال العالم كلّهم. وهذا أمر ملح في مجال توفير الحاجات الإنسانية الأساسية.

لا شكّ في أنك تعرف أنّ كلّ إنسان في هذا العالم بحاجة إلى تلبية حاجاته الضرورية لبقائه، وتعرف أيضاً أنك لست بحاجة إلى إخبارك كيفية توفير هذه الحاجات لأطفالك. وبصورة عامة، فإنّك إذا زوّدت أطفالك بطعام صحيّ، كما اقترحتُ في الفصل الثامن، وإذا ما وفرت لهم الحدّ الأدنى على الأقل من النوم، والمأوى، والماء النقي، فسوف يتمكنون من العناية بأنفسهم بعد مغادرتهم مرحلة الطفولة، ولكن الشيء الذي قد لا تعرفه هو أنّ أكثر من نصف أطفال العالم لا يحصلون على الحدّ الأدنى من الحاجات البيولوجية هذه، وأنّ أكثر من نصفهم يعانون سوء التغذية، وأنّ أعداداً كبيرة لا تجد مكاناً تنام فيه، ولا ماء صالحاً للشرب، ثم إنّ أكثر من نصف أطفال العالم يتنفسون هواءً ملوثاً. وعليه، يمكنك أن تدرك بأننا جميعاً نتأثر مباشرة عندما لا نمارس دوراً نشطاً في التأكد من حصول كلّ طفل في هذا العالم على حاجاته المادية في بيئة صحية.

وبالتأكيد أنت تفعل كلّ ما تستطيع من أجل تلبية الاحتياجات البيولوجية لأطفالك، ولكن هل تتحمل مسؤوليتك لضمان حصول كلّ طفل آخر على الفرصة ذاتها تماماً؟ هذه القضية يجب أن تهتمك وتهتم أطفالك أيضاً. وأنا أرى عدم وجود قيمة لآرائكم في الأوضاع المزرية التي يعيشها الأطفال الصغار في أرجاء الكرة الأرضية بأسرها. ليس المهم رأيك، وإنما التزامك بإحداث تغيير في هذا العالم بالفعل لا بالقول؛ فصوت ما تفعله سيكون مسموعاً أكثر مما تقوله. وباعتقادي أن التزامك بعمل شيء بسيط بخصوص المشكلات السهلة للغاية، أهم بكثير من رأيك القوي بخصوص القضايا الشائكة. وسوف تدرك الهدف من وجودك عندما تتذكر أهمية التزامك، وكذلك عندما تذكر نفسك أن امتلاك رأي لا علاقة له أساساً بفعل أي شيء ذي قيمة. إنّ مقولة «كما تُدين تدان» أو «ما تزرعه تحصد» تكتسب أهمية كبيرة هنا. فكلما ساعدت على توفير الحاجات الأساسية للبشر جميعاً لمست قيمة التزامك وأهميته، ولكن إن وقفت مشاهداً دون أن تفعل شيئاً، فإنك لن تضيف شيئاً إلى حياتك سوى الشعور بالعجز.

هناك نقطة أخيرة تتعلق بالحاجات المادية الأساسية للأطفال الصغار، وهي أنّ الأطفال الذين يكونون في أدنى درجات سلم الحاجات، ولا يتوافر لهم ما يكفي من الطعام، والماء، والمأوى وغيره، سرعان ما يموتون من سوء التغذية، والتعرض للظروف الجوية السيئة. ولكن، تذكر وأنت تقرأ عن الدرجات العليا في هذا السلم، أنه عندما تتوافر لفرد ما الفرصة للصعود إلى قمة هذا السلم؛ أي إلى النقطة التي أسميها نقطة اللا حدود، فإنّ هذا الفرد نفسه يمكن أن يختار الصّوم، وأن يعيش عند مستوى عالٍ، ولكن بكميات أقل من الكميات المطلوبة لإبقائه حياً عند الدرجة الدنيا.

لذلك لا تنس هذه الفكرة وأنت تستعرض جهودك في مساعدة الطفل على الوصول إلى الدرجات العليا على سلم الحياة. وعندما يكون الإنسان حرّ الاختيار، فإنه يستطيع عملياً تحقيق أي شيء يرغب فيه، ولكن إذا حُرِم هذه الحرية وهو ما يزال عند الدرجات الدنيا، فسوف تنعدم الخيارات أمامه، ومن ثم يقضي نحبّه. وعليه؛ فإنّ سلب الخيارات من الأطفال يعني موتهم حتى قبل أن يتخذوا قراراً بالبقاء. وهذا هو الدرس الكبير الذي نتعلمه من رواية الكاتب الألماني السويسري هرمان هسه (1877 – 1962) *Siddhartha*. وهذه بعض المقاطع من حوار دار بين سدهارثا الذي تخلى عن كلّ ما يملك من أجل أن يجرب الإحساس بالفقر من جهة وأحد التجار من جهة أخرى.

سدهارثا: تلك هي الحياة: أخذ وعطاء.

التاجر: حسناً، كيف تعطي وأنت لا تملك؟

سدهارثا: الكلّ يعطي ما بحوزته؛ فالجندي يعطي قوّته، والتاجر يعطي بضاعته، والمعلم يعطي دروسه، والمزارع يعطي الأرز، والصيد يعطي السمك.

التاجر: حسناً، ما الذي يمكنك إعطاؤه؟ ما الذي تعلمته لتعطيّه؟

سدهارثا: أستطيع أن أفكر، أستطيع أن أنتظر وأصبر، أستطيع الصّوم.

التاجر: هل هذا كلّ شيء؟

سدهارثا: أعتقد أن هذا كل شيء.

التاجر: وما فائدة كلّ هذا؟ مثلاً، ما الفائدة من الصيام؟

سدهارثا: إنّه ذو قيمة كبيرة يا سيدي؛ فإن لم يكن لدى الإنسان ما يأكله، فإن أفضل شيء يفعله هو الصيام. فلو أنّ سدهارثا لم يتعود الصّوم، فلربما كان مضطراً إلى البحث عن عمل ذاك اليوم عندك، أو في مكان آخر، لأنّ الجوع سوف يدفعه إلى ذلك، ولكن لأنّ سدهارثا صائم، فإنه يستطيع أن يصبر بهدوء. إنه ليس نافذ الصبر، وهو ليس بحاجة، ويمكن أن يقاوم الجوع مدة طويلة هائلاً به. لذا فالجوع مفيد، يا سيدي.

ولو أن سدهارثا لم يتمتع بقدر كبير من التنوير، لكان انعدام الطعام السبب في موته. لذلك، يتعين علينا توفير الطعام والتنوير لأطفال العالم كلهم لتلاً نحرهم حرية الاختيار.

أما أنت، فيمكنك أن تعطي بعضاً مما عندك، ولكن الأهم من ذلك هو تعليم أطفالك أن يفعلوا مثلك تماماً. ويمكنك أن تعلمهم درس العطاء والمشاركة، وإحداث تغيير في هذا العالم. ويمكنك مساعدتهم على استبطان القيم التي تجعلهم يمدون يد العون لمساعدة الآخرين على تلبية حاجاتهم المادية، وهم بذلك سيدفعون الآخرين ليحذوا حذوهم، وهذا هو الذي يُحدثُ التغيير في العالم، كأثر كرة الثلج، بحيث يجعله ينتشر ويتسع بفعل قوة فكرة اقتنع بها كثيرون وحادق وقتها. ففي مدة قصيرة، وعندما تشارك أعداد كافية من الناس في مساعدة الآخرين على تلبية احتياجاتهم، ستتحول كرة الثلج تلك إلى كتلة من الحنان والاهتمام، يتجاوزان الأنانية والجشع اللذين يتسببان في الظروف التي تؤدي إلى موت الأطفال لحرمانهم حقوقهم الإنسانية الأساسية. ومن خلال هذا التغيير في الوعي العام، سيتغير العالم، ولن يستطيع أي شيء إيقاف هذا الانهيار الكبير، عندما تجعله جزءاً من هدفك، وتجعل أطفالك يحذون حذوك.

الحاجة إلى الحب والانتفاء

يجب تلبية الحاجات الأساسية لبقاء أطفالك كل يوم وكل لحظة ما داموا أحياء، ولكنهم مع صعودهم درجات السلم، فمن المهم أيضاً تلبية الاحتياجات المتبقية، ومع أن تأثيرات حرمان الطفل الحب والانتفاء قد لا تكون واضحة تماماً، وقد لا تظهر نتائج هذا الحرمان في وقت قصير، فإن الطفل سيموت إذا حُرّمهما، تماماً كما يموت إذا ما حُرّم الطعام والماء.

ولا شك في أن البشر جميعهم يحتاجون إلى الحب من أجل الشعور بالانتفاء. وقد أظهرت دراسات لأطفال حرّموا صور الحب جميعها مثل حبسهم داخل خزائن، أنهم لا يتعافون من هذه المحنة الأليمة، وأنهم سيموتون بعد مدة إذا كان هذا الحرمان قاسياً، واستمر إلى مدة زمنية طويلة. إنَّ الحب حقٌّ من حقوق الإنسان الأساسيّة، وإذا كان الله قد رزقك طفلاً، فأنت ملزم بقوانين أخلاقية أسّى من القوانين الوضعية كلّها؛ تزويد تلك النفس البشرية بحاجات البقاء الأساسية، ومنحها ما يكفي من الحب.

إنَّ هذا الكتاب يزخر باقتراحات محفزة لتزويد أطفالك بكثير من الحب والحنان. وهناك ضرورة لجعلهم يشعرون باهتمامك بهم، وحرصك على مصلحة كلٍّ منهم، وتقديرهم، وأنتك تربيهم

ليبلغوا أقصى ما يستطيعون. وكما ذكرت سابقاً، يتعين عليك في السنوات الأولى من أعمارهم أن تلمسهم، وتحملهم، وتقبلهم، وتداعبهم، وتدللهم، وتتواصل معهم. وإذا كنت تعتقد أن هذا ليس من طبيعتك، فعليك أن تعمل على تغيير هذا الطبع؛ ليس لمصلحتك فحسب، بل من أجل بقاء أطفالك. وإذا قلت إنك لا تستطيع تغيير طبيعتك هذا، فغيّر هذه العبارة إلى (أستطيع) أن أغيّر طبعي، ثم ابحث عن السبب الذي يدعوك إلى التخلي عن مسؤولياتك. إنك تمتلك الإرادة الحرة لتكون ذلك الشخص الذي تختاره لنفسك، ولا توجد عبارة «لا أستطيع» ضمن مفردات الأشخاص ذوي الإرادة الحرة.

إنّ الأطفال طوال طفولتهم بحاجة إلى اللمس، والحمل، والاحتضان. وفي الحقيقة إنّ هذه الحاجة لا تتراجع أبداً، مع أنها قد تتغير في شكلها مع تقدم سنوات النّمّو، ويجب أن تتوافق تعبيرات الحب من لمس واحتضان وغيرها مع تعبيرات لفظية، مثل: أحبك. أنت رائع! ما أجملك! لا مثيل لك بتاتاً. وتشير الدراسات إلى أنّ هذه التعبيرات الحسية والمادية تجعل الأطفال يشعرون بالطمأنينة والانتماء، وأنّ هذا النوع من التعزيز يساعدهم على الإحساس القوي بقيمتهم، والشعور الإيجابي تجاه أنفسهم طوال حياتهم.

وكلما منحت أطفالك مزيداً من الحبّ ساعدتهم أكثر على أن يكونوا هم أنفسهم مفعمين بالحبّ، وسوف ينثرون هذا الحبّ على غيرهم. في المقابل، فإنهم لا يستطيعون منح هذا الحبّ إذا كان ينقصهم. ولتوصّينا أسباب المشكلات جميعها التي تواجه البشر في أيامنا هذه، فسوف نجد أنّ حلول هذه المشكلات واضحة وبسيطة لدرجة شعورنا بالدهشة من عدم قدرتنا على حلّها؛ إنّ الحلول للمشكلات الاجتماعية جميعها التي يواجهها الجنس البشري تكمن في حبّ بعضنا بعضاً إلى أقصى ما نستطيع، دون أن نحيد عن ذلك.

أجل؛ الحبّ هو الحلّ. وهذا ليس مجرد تعبير وجداني من شخص مثالي عاطفي، بل هو الحلّ الحقيقي، ولودرنا حياة الأشخاص المنحرفين سلوكياً، ومصيرهم دور الإصلاح والسجون، أو الذين حُكّم عليهم بالإعدام، لوجدنا أنّ السبب وراء انتهاكهم لمعايير سلامة المجتمع هو غياب الحبّ من حياتهم. ويُسْتدَلُّ من حياة أفراد العصابات في المدن الأمريكية، الذين يبدؤون حياتهم الإجرامية بسرقة السيارات، وتعاطي المخدرات، وحمل السلاح، أنهم كانوا في يوم من الأيام أطفالاً محبوبين ينتظرهم مستقبل يكونون فيه أفراداً نافعين لهذا العالم، لكن حياتهم انقلبت رأساً على عقب في مرحلة ما من مراحل عمرهم؛ لانعدام الحبّ في حياتهم. وعلى الرغم من قناعتي أنه لا يحقّ للسجين القابع في زنزانه لسوم الآخرين على مأزقه، لأنّ تحمّل الإنسان مسؤولية تصرفاته هي القوة

الدافعة لسلوك أي إنسان سوي، فإن بالإمكان الحدّ من عدد السجون لو أنّ مثل هؤلاء المنحرفين قد تلقوا جرعات من الحبّ، وشعروا بقيمتهم، وتعلّموا حبّ الآخرين لا كرههم. إنّ القاضي الذي يصدر حكماً على شاب سرق سيارة، لا يظهر حبّاً أو احتراماً لهذا الشاب؛ لأنّه كان عليه أن يفهم منذ البداية أنّ هناك عواقب لتصرفه بكراهية ضدّ الآخرين مهما كانت الأسباب.

إنّ على هذا الشاب إدراك أنّ تصرفه هذا غير مقبول أبداً، ويجب أن تكون الرسالة واضحة: تحبّك، نعم، ولكن لن نسمح لك أن تقوم بمثل هذه السلوكات غير السويّة. إنّ التصرف بكراهية ضدّ الآخرين يرجع إلى انعدام الحبّ في الداخل، وبالمثل، فأنت عندما تضغط على شخص ما، ويكون ردّه مشوباً بالكراهية، فلا تستغرب؛ فهذا ما يختزنه في داخله؛ فكلّ إناء بما فيه ينضح، ولذلك، يجب أن نعمل جميعاً لمساعدة شبابنا على ألا يكون في داخلهم سوى الحبّ، حتى إذا ما تعرضوا لضغوط في يوم ما، فلن يخرج منهم سوى الحبّ.

وإذا ما أنعمت النظر في المشكلات الخطيرة التي تواجه هذا العالم — بما في ذلك الحروب والجريمة، والجفاف، والمرض، والظلم — فستجد أنّ دافعها انعدام الحبّ بين البشر، فأنت لن ترى أفراداً يطلقون النار على الآخرين، تحت أيّ مبرر لو أنّهم تربّوا على حبّ الإنسانية؛ لأنهم عندئذ، لن يكونوا بحاجة إلى استغلال الآخرين، أو الإساءة إليهم كي يشعروا بسيطرتهم وأهميتهم. ولكنك ستري أنّ الأشخاص الذين تنبض قلوبهم بالحبّ يسارعون إلى مساعدة المناطق التي تعاني المجاعة، ويحولون دون تحولها إلى كارثة، ولا أعني هنا أنّ مآسينا ستتلاشى لو أنّك أحببت الآخرين فقط، بل ما أعنيه هو أنّك سوف تحدث تغييراً كبيراً في العالم لو أنّك بدأت أولاً بمنح الحبّ لأطفالك، ومن ثمّ توسعت في منحه لكلّ من لك اتصال به.

إنّ المشكلات الكبيرة في العالم ليس مردها الحروب، والجريمة، والفقر، والجوع، والظلم، أو أيّ شيء آخر، بل هي مشكلات من صنع البشر؛ فالأشخاص الذين يترعرعون في أحضان الحبّ لا يرغبون في اقتراف الجرائم، بل يرغبون في بذل أقصى ما عندهم لجعل هذا العالم مكاناً أفضل للعيش.

وهؤلاء لا يشيخون بوجوههم ويتجاهلون الجوعى أو الفقراء، بل يهرعون إلى مساعدتهم، لذا فالبشر هم الذين يمارس بعضهم الظلم على بعض، وهم الذين يطلقون النار بعضهم على بعض، وهم الذين يصنعون الأسلحة الذرية لإبادة شعب آخر. ويمكنك أن تتصور جيلاً من الناس الذين تربّوا على الحبّ، لترسم في مخيلتك صورة لعالم بأكمله يعمل بتعاون وحبّ. إنّ الأمر كلّه يبدأ بك؛

فبدلاً من نشر الحقد والكراهية والثأر والغضب، يمكنك أن تتعهد بتزويد أطفالك بجرعات كبيرة من الحب بأي وسيلة تستطيعها، بصرف النظر عن أعمارهم، وأن تتحى السلبيات ورغباتك الشخصية جانباً. عندئذ ستجد أنك تقفز قفزات كبيرة نحو الحب الكوني الذي أكتب عنه في هذه الصفحات، ويعني كذلك أن تكون صارماً، وألا تتهاون مع ما يناقض هذا الحب، وقد يعني منح الحب أن تكون صادقاً ونزيهاً، ولكنه يعني دائماً عدم استغلال أي إنسان آخر لمنفعتك أو مصلحتك الذاتية. ويعني كذلك دائماً التفكير فيما هو خير لأطفالك، ولأطفال الآخرين من بعد. وأعتقد جازماً أننا نستطيع تغيير العالم إذا ما بدأ كل منا بنفسه.

لا يمكن أن نقفز الدرجات مرة واحدة من أجل أن نعيش في المستويات العليا من السلم، بل علينا اجتياز درجة واحدة في كل مرة؛ لأن الدرجات السفلى تتعلق بحاجات يجب إشباعها لضمان مواصلة الصعود وصولاً إلى المستويات العليا والبقاء فيها، وعلينا ألا ننسى أن حاجة الأطفال إلى تلقي الحب ومبادلته في أثناء اجتياز هذه الدرجات أمر ضروري لأطفال العالم كافة؛ تماماً كالحاجة إلى الحصول على كمية كافية من الأكسجين. إن المطلوب إليك هو منح الحب، واستبعاد الكراهية في علاقتك مع أي إنسان، ولا سيما أطفالك. وعندما تشعر بتزايد الغضب أو الكراهية في داخلك، أو عندما تتصرف بغضب أو كراهية معهم، فعليك أن تعرف أنه قد آن الأوان لتعمل على تغيير ذاتك، وهذه هي نقطة البداية الصحيحة؛ أي أن تغيّر ما بك بدلاً من النظر إلى عيوب أطفالك أو عيوب أي شخص آخر. وبدلاً من أن تقول إنه مخفق ولا خير يرتجى منه، أو إنها طفلة عنيدة مدللة، حاول التفكير بطريقة جديدة؛ فهذا النوع من العواطف – سواء أعجبك سماع هذا الرأي أم لا – مشكلتك أنت لا مشكلة أطفالك؛ فهذه العواطف تُظهر أحكاماً ومشاعر مخزونة في داخلك. وحتى لو كنت تعتقد أنك محقّ تماماً، وأنك تمتلك الدليل على ما تقول، فهذه الأحكام والمشاعر تسكن في أعماقك، وعليك أن تبدأ التغيير من داخلك. إن مثلك مثل البرتقالة التي تعطي ما في داخلها من عصير، فعندما تتفوه بعبارة نابية، أو تفكر بأفكار بغیضة، فلأن هذا ما هو موجود في داخلك أنت، ولكن إن أظهرت لأطفالك الحب إذا ساءوا التصرف – مع الحزم المقرون بالحب دائماً – فسينشؤون وهم يختزنون الحب في داخلهم. وتذكر ما قاله غاندي مرة: «لوطبقنا مبدأ العين بالعين، فلن يلبث العالم طويلاً قبل أن يصبح أعمى».

ولهذا ففكر في إسباغ الحب على أطفالك لحاجتهم إليه من أجل بقائهم، ونموهم، ونضجهم وشعورهم بالانتماء، لأنفسهم أولاً، ومن ثم لعائلاتهم ولمجتمعاتهم، وصولاً إلى العالم والكون. أما

الذين يتعدّون على الإنسانية، ويكثرون الكراهية والغضب تجاه الآخرين بدلاً من الحبّ، فإنهم يشعرون بعدم انتمائهم إلى أيّ مكان، لذلك فإنهم يعتدون على غيرهم، ويظهرون احتقارهم لأنفسهم. وكلّما استبدلوا الحبّ بالكراهية، سرعان ما يشعرون بالانتماء. وعندما يتحقّق ذلك، فإنّ مشاعر الكراهية لا تختفي فحسب، بل إنّ السلوك المرتبط بهذه الكراهية سيختفي من حياتهم إلى الأبد. وإذا ما شعرت أنّ مثل هذا القول مجرد هُراء وكلام سخيّف، فبإمكانك التحدّث إلى أيّ شخص تعامل مع عتاة المجرمين، أو مع الذين يصنّفون بأنهم مجانيّن أو مختلون عقلياً، وسوف يقولون لك: إذا استبدلنا الحبّ بالكراهية، واستخدمنا الحبّ والاحترام أداة، ونشرنا ما يكفي منهما، فسيستعيد هؤلاء الأشخاص وعيهم ورشدهم؛ حتى الميؤوس منهم.

هناك أدلة كثيرة تثبت أنّ الأشخاص الذين يصنّفون على أنّهم مصابون بفصام الشّخصية، والتوّحد، والجنون، وغير ذلك من التصنيفات القاسية، يمكن معالجتهم من خلال معاملتهم بالحبّ الغامر؛ لذا يتعين عليك أن ترى الحبّ حقاً من الحقوق الأساسية لأطفالك، وأنّ تعبّر عنه في تصرفاتك جميعها معهم، وأنّ تنظر إليه على أنّه وسيلة لشفاء أنفسنا وكوكبنا، ومن ثمّ تصرف بعد ذلك بتلقائيّة وعفويّة. من المؤكّد أنّك لست بحاجة إلى دورة تدريبية في كيفية توزيع الحبّ على أطفالك، وما تحتاج إليه هو أن تتخلى عن معارضة فكرة أنّ الحبّ هو أساس بقاء الجنس البشري. امنح حباً كي تجني حباً مضاعفاً، ولكن إن زرعت غضباً وكراهية فلن تجني غيرهما.

وينطبق هذا الحال عليك وعلى أطفالك، وعلى طريقة تربيتهم لأبنائهم لاحقاً. باستطاعتك تحطيم القيد الذي يربطنا جميعاً بالممارسات العتيقة؛ من خلال نشر الحبّ ومقاومة إغراء الكراهية، فأنت وحدك القادر على إحداث تغيير في حياة أطفالك، وحياة ملايين الأطفال في المستقبل، بمنح أطفالك ومن تتعامل معهم جميعهم أقصى ما تستطيعه من حبّ.

الحاجة إلى تقدير الذات والاحترام من الآخرين

الدرجة اللاحقة على سلّم الحاجات هي تحقيق الذات، وهذا أمر منطقيّ؛ لأنّ علينا أولاً وقبل كل شيء تلبية الحاجات التي تحافظ على الحياة، ومن ثمّ توفير الحبّ للأطفال إذا كنا نريد لهم البقاء. وعندما يصبح الأطفال مشبعين بالحبّ، فإنهم يحوّلون ذلك إلى حبّ أنفسهم، وعندئذ سيتمكّنون من منح هذا الحبّ بلا حدود دون أن ينقص منه مثقال ذرّة.

إنّ الأطفال يبنون تصورهم الخاص لذواتهم بالتّزامن مع منحك إياهم فيضاً من الحبّ، بحيث يشعرون بأنهم محبوبون ومرغوبون، وعندئذ يتطور لديهم الشّعور بالانتماء. وكلّما كانت صورة الذات تلك إيجابية، ترسخ لدى الطفل مزيد من هذه المشاعر تجاه الأشخاص الذين يتعامل معهم جميعهم، أما إذا كان الأطفال يشعرون باحتقار للذات فسوف تنمو لديهم مشاعر الازدراء، وهذا ما سيعطونه للآخرين. ولا جدال في أنّ بناء صورة قوية للذات قائمة على تقدير هذه الذات، يعدّ حاجة حتمية لكلّ إنسان، وهي تسمّى حاجة، لأنّ ردّة فعل الفرد دونها ستكون مدمّرة لنفسه وللآخرين، وسوف يصبح في النهاية عاجزاً عن العمل منفرداً أو من خلال جماعة. ولأنّي أومن بشدة بوجود مساعدة الأطفال على اكتساب صورة قوية للذات، فقد خصّصت الفصل الثاني من هذا الكتاب بكامله لتزويدك بأساليب محدّدة لمساعدة أطفالك على أن تكون نظرتهم إلى ذواتهم إيجابية دائماً، لذا أقترح عليك إعادة قراءة ذلك الفصل لترى مقدار ملاءمته لهمم الحاجات التي على الأطفال أن يحققوها إذا أرادوا أن يشعروا بالهدف والمهمة طوال حياتهم.

حاجات النّموّ (الحرية، والعدالة، والنظام، والفرديّة، والمغزى، والمعنى، والاكتفاء الذاتيّ، والبساطة، والمرح، والحيوية).

في حين يواصل أطفالك التدرّج في الصعود إلى الدرجات العليا من سلّم الحاجات، فإنهم سوف يطورون صورة إيجابية للذات، يرون أنفسهم من خلالها أنهم محبوبون، ومهمون، وينتمون إلى مكانهم الصحيح. وتشمل الحلقة الأخرى الحاجة إلى النّموّ، والتطور إلى مخلوقات بشرية فاعلة. وسوف يكتسب الأطفال إدراكاً بالهدف بشرط أن يكونوا مدفوعين بالرغبة للنمو، وليس بهدف إصلاح عيوبهم ونقائصهم. وقد وصف أبراهام ماسلو هذه الظاهرة في كتابه الشهير نحو سيكولوجية الكينونة *Toward, psychology of Being*، حيث يقول: «هناك فرق جوهري بين دفع الخطر، أو الهجوم والفوز والإنجاز الإيجابي من جهة، وحماية الإنسان لذاته، والدفاع عنها، والحفاظ عليها، انطلاقاً من الرغبة لتحقيق الذات، والإثارة، والعظمة من جهة أخرى».

غالباً ما يكون الطفل المدفوع بالنقص مدفوعاً بالحاجة إلى التغلب على بعض العيوب في حياته، لذا فهو يرى أن لاقية له، ويكابد ليكون ذا قيمة، في حين نرى أن الأطفال المدفوعين بالنّموّ يرون أنفسهم أفراداً مهمّين، ولهم قيمة لأنهم أحياء، ومدفوعين بالحاجة إلى النّموّ، وتعرّف جوانب الحياة الأخرى. وهذه الحاجات العليا تعدّ أساسية في بناء إدراك الهدف لطفلك.

وهي تشمل – غير مرتبة حسب الأهمية – حاجات: الحرية، والعدالة، والنظام، والاستقلالية والهدف، والبساطة، وروح المرح، والحيوية. وتمثل كل كلمة من هذه الكلمات حاجة معينة يمتلكها الطفل وهو في مرحلة النُّمُو، بشرط أن يكون قد سبق إشباع الحاجات الأساسية للأمن والسلامة، والحاجات الفسيولوجية البحتة من: هواء، وماء، وغذاء، ومأوى، ونوم.

وعندما يأخذ الأطفال في صعود السلم باتجاه التفوق والنجاح الشخصي، يجب أن تنتهياً لهم الفرص ليشعروا أنهم أحرار في اتخاذ القرارات، وأنَّ باستطاعتهم تحقيق العدل لأنفسهم، وأنه لن يحكم عليهم ظلمًا بناءً على نزوات الآخرين. وهم يحتاجون إلى النظام والانتظام في حياتهم، ولا يتوقفون عن حبِّ والديهم الذين يعتمدون عليهم دائماً للشعور بالتقدير لتفردهم، دون مقارنتهم بآخرين، إضافة إلى أنَّهم بحاجة إلى تعلُّم كيفية الاهتمام بأنفسهم، والشعور بالاستقلالية والاكتفاء الذاتي، وتلقِّي المديح والثناء باستمرار على إنجازاتهم وتميُّزهم الشخصي، إضافة إلى حاجتهم إلى المرح، والاستمتاع بالحياة، ومشاركتهم هذه الخبرة. والأهم من ذلك أنهم يحتاجون إلى الشعور بأنهم نشطون إبداعياً، وامتلاك إحساس مرهف، ورغبة قوية وتقدير تجاه كلِّ شيء في الحياة، وكذلك معرفة كيفية تجنُّب الملل، وأن يزدادوا توهُّجاً مع إشراقة كلِّ يوم، وهذا ليس وهمًا بعيد المنال، بل هو الحقيقة بعينها.

لقد أشرت في الفصول السابقة كلِّها من هذا الكتاب إلى حاجات النُّمُو هذه، وقدمت أساليب وإرشادات عدة أرى أنها سوف تساعد في تكوين تفكير أطفالك وعوالمهم الداخلية، لجعلهم يركزون بوضوح على أن يكونوا مدفوعين في كلِّ شيء يفكرون فيه، أو يقومون به برغبتهم في النُّمُو وليس بحاجاتهم إلى إصلاح مثالهم. إنني لا أعتقد أنَّ الأطفال يعانون عيوباً أو نقائص، بل أرى أنهم ذوو قيمة وعلى قدر كبير من الأهمية، وأنَّ النُّمُو ممكن دائماً، وأنَّ باستطاعتهم النُّمُو والاستمتاع بما هم عليه في آن واحد. وقد لخصت هذا الاعتقاد في الجملة التي استخدمتها في كتاباتي ومحاضراتي مرات عدَّة، وهي: ليس من الضروري أن تمرض كي تشفى.

في تعاملك اليومي مع أطفالك، تذكر هرم الحاجات هذا دائماً، وتذكر أنَّ هذه الحاجات، مع أنها ليست ملحة كالغذاء والمأوى، على قدر كبير من الأهمية لتطورهم الداخلي يوازي أهمية انعدام الغذاء أمام نموهم البدني. وسوف تصعد السلم بعد حاجات النُّمُو الأساسية التي ذكرناها في هذا الجزء، إلى ما أسماها ماسلو الحاجات العليا، أو حاجات تحقيق الذات؛ إنَّها معرفة الحقيقة، أو التدوُّق الجمالي، أو الخير والصلاح، أو اليقظة الروحية.

الحاجات العليا (الصدق، والجمال، والجمالية، والتقدير، والصلاح، والوعي الروحي)

للأطفال احتياجات تفوق احتياجات التّموّ التي وردت في الجزء السابق. وعندما يمرّ أطفالك بهذه المراحل المختلفة، ويشبعون حاجاتهم في كلّ مرحلة منها، فإنهم سوف يصلون إلى النقطة التي يشعرون عندها بإحساس قوي بالهدف والمعنى من وراء وجودهم في هذه الحياة. ويلاحظ أنّ كثيراً من الآباء يخفقون في مرحلة الحاجات العليا، معتقدين أنها لم تعد تلك الحاجات التي نتحدث عنها، بل هي مجرد نظام معتقدات، أو خيارات عقائدية. وبناء على كتابات ماسلو وباحثين آخرين، فإنّ الحاجات العليا تشمل أيضاً تنظيم البيئة أو ضبطها، إذا كنا نريد للطفل أن يصل إلى قمة الهرم، ويحقق حياة هادئة خالية من الأمراض النفسية، كما وصفتها في الصفحات الأولى من هذا الكتاب.

تذكّر أننا نتحدث عن أطفال يحاولون، ببساطة، تعلّم التّكيّف مع الحياة، والانسجام مع بيئتهم. ونحن نتحدث عن تنشئة أطفال ليكونوا أفراداً محقّقين لذواتهم، لا يعرفون أبداً نوبات القلق والتوتر، ولا يشعرون بالضيق والاكئاب في الحياة. نحن نتحدث عن أطفال سوف يكبرون ليصبحوا مسيطرين على عالمهم، حيث سيكونون بالنسبة إلى حياتهم كالفنان العظيم بالنسبة إلى تحفته الفنية؛ سيظلون يشكلون لوحة الحياة للتعبير عما يريدون منها تماماً. ويمثل إدراك الحاجات العليا هذه، والحاجة العليا لتحقيق الذات التي سنناقشها في الجزء اللاحق، الفرق الحقيقي بين الاكتفاء بمجارة الحياة من جهة، وإيجاد الفرد حياته الخاصة من جهة أخرى. وتشمل الحاجات العليا التي يحتاج الأطفال إلى استبطانها في عوالمهم الداخلية: معرفة الحقيقة، والخير، والصلاح، والجمال، والتذوق الفني، واليقظة الروحية.

ومرة أخرى، أودّ تأكيد أهمية إشباع الحاجات الأولية لهم فيما يعرف بالحاجات الدنيا أو حاجات إشباع النقص، ليتمكنوا من الوصول إلى مرحلة تحقيق الذات، فعندما تُشبع حاجاتهم الجمالية والروحية فإنهم يمتلكون العزيمة التي تقتدر إليها حياة معظم الناس الآخرين، وفي فئات الحاجات العليا هذه، يجري حلّ المعضلات التي يواجهها معظم الناس، وعندما يقول لي الناس إنهم لا يعرفون هدفهم، أو الغاية من وجودهم، أو إنهم ما يزالون يبحثون عن هدف، فإنني أدرك أنهم ما يزالون يبحثون لأنهم عالقون في الحاجات الأساسية المذكورة سابقاً. وفي اللحظة التي يتوقف فيها الإنسان عن التفكير في نفسه، ويبدأ في إدراك الحاجة إلى الحقيقة، والروحانيات، والخير، وتذوّق الجمال في هذا العالم، يصبح كلّ شيء يراه أو يفعله جزءاً من تلك المهمة. وإذا أراد الفرد لهذا العالم أن يكون مكاناً أفضل وأجمل للناس كافة، فإنّه لا يشغل نفسه بالحاجات الدنيا؛ فهذه

يجري إشباعها تلقائياً، بل يصبح نموذجاً لذلك الجمال. وبدلاً من البحث عن كيفية إحداث هذا الجمال، فإنه يعيشه بكل بساطة وعفوية، وعندما يعرف الإنسان أهمية الصدق والحقيقة فإنه لا يحاول نشرهما أو البحث عنهما، بل يكون جزءاً منهما.

يعدّ هذا الجانب من أصعب المجالات التي يُكتب عنها، ومع ذلك من المهم أن تدرك ما أكتبه في هذه العبارات التي تقرؤها الآن: إن إدراك الهدف ليس شيئاً تكتشفه، بل هو أنت، والحقيقة ليست شيئاً تبحث عنه، بل هي شيء تعيشه. إن أطفالك يحتاجون إلى الحقيقة من أجل البقاء كما حاجتهم إلى الهواء والماء، ولك أن تتصور العيش في بيئة، لم يقل أحد الحقيقة فيها مطلقاً، بيئة كل شيء فيها أكذوبة. كيف يمكنك، والحالة هذه، الوثوق بأي إنسان؟ وكيف يمكنك العمل إذا كان كل شخص كاذباً؟ لاشك في أنك ستفقد عقلك وأنت تحاول التمييز بين الحقيقة والكذب، وعندما تتوصل إلى حل لهذه المعضلة ستجد من يفاجئك: كنت أكذب، هذه ليست الحقيقة بتاتاً. في كثير من البيئات التي يسودها الكذب، يتكوّن لدى الناس شعور قوي بعدم الثقة، وهو ما يجعل العيش بمنطقية وعقلانية أمراً مستحيلاً؛ فصحيح أن معرفة الحقيقة حاجة، ولكنها يجب أن تكون شيئاً يتجسّد في نفوس الأطفال، وليست شيئاً يبحثون عنه ويجدونه في شيء أو شخص آخر، وينطبق ذلك على كل حاجة من الحاجات العليا، إذ يمكن أن نلمس توقّ الناس إلى تذوق الجمال عندما يتعرّضون لبيئات بشعة ومنحطة وقذرة زمنياً طويلاً، ويصبح البقاء مستحيلاً عندما تنعدم الفرصة لتذوق الجمال في البيئة. إن شرط إشباع حاجة الجمال ليس قدرة الإنسان على تذوق لوحة فنية رائعة، أو الاستمتاع بقطعة موسيقية معروفة، بل عندما يكون الإنسان ذوّاقاً في داخله. إنه القدرة على تقدير كل شيء لجماله الفريد، وتوافر الاتجاهات الداخلية الإيجابية التي ترى الجمال في كل إنسان وفي كل شيء. إن الإنسان الذي يتمتع بهذه القدرة يحمل هذه الذائقة في أعماق نفسه بدلاً من محاولة العثور عليها في أي شيء آخر؛ فمثل هذا الإنسان يملك مزية التذوق الجمالي هذه، ويعيشها بدلاً من محاولة العثور عليها. إن هذه المنحة من تذوق الجمال تدخل ضمن سيكولوجية الكينونة، وليس في سيكولوجية السعي والكّد وراء الأماكن الأكثر علوّاً وسموّاً، وسوف تجد، بعد دراستك لكل حاجة من الحاجات العليا، أن المنحى ذاته ينطبق عليها كلّها، فالخير والصلاح ليسا مزية يكتشفها أحدنا في شيء خارج نفسه، بل هي مزية عليه أن يعيشها. وفي ضوء ما تقدم، يمكن للأباء مساعدة أبنائهم على الشعور بالرضا تجاه أنفسهم، وتقدير الخير في هذا العالم، والسعي وراء تحقيقه دائماً، عندئذ سوف يرويه في كل مكان، وتكون مهمتهم أكثر وضوحاً، وسوف يعرفون أن نشر مشاعر الخير أكثر أهمية من محاولة أن يصبحوا أشخاصاً منافقين، يحاولون فقط الشعور بإيجابية تجاه أنفسهم من

خلال إرضاء كل شخص آخر. سوف يكونون ما اختاروه هم، وسوف يكون الخير شيئاً يضيفونه إلى الحياة بدل أن يأخذوه منها.

إن اليقظة الروحية مثل الحاجات العليا كلها، عملية داخلية نابغة من أعماق الفرد نفسه، ولا يعني الأشخاص الذين تعدّ هذه المزية جزءاً من إنسانيتهم أنهم يبشرون بمعتقد خاص بمنظمة ما، وإنما هم أشخاص مفعمون بروائع هذا الكون ومعجزاته، إنهم يتحولون إلى أشخاص ينثرون الحب، ويحترمون كل حياة بشرية، ويؤمنون بأن لكل شيء سبباً، وأن الكون خلق كامل من صنع الله تعالى، لا تشوبه شائبة.

أن تكون روحانياً، يختلف كثيراً عن محاولة أن تكون رجل دين، أو أحد أتباع الديانات أو التنظيمات المختلفة، إنه يعني - مثلاً - أن تتمثل السيد المسيح لا مجرد أن تكون مسيحياً، وأن يكون هذا جزءاً من صلب الحاجات والقيم العليا، ويعني ألا تقتل، ولا تشهر بغيرك، ولا تشوه سمعته، أو أن تتصرف بطريقة لا أخلاقية. إن هذه الروحانية أسلوب حياة، وليست عضوية في منظمة، إنها جزء منك ومن أطفالك، ولا توجد أي قواعد، أو قوانين، أو واجب وطني، أو أي شيء آخر يمكن أن يسمو على إيمانك بحرمة حياة الإنسان، وبالحاجة إلى نشر الحب، وبالحاجة للبشر جميعهم إلى العيش في وئام وانسجام، كما تدعو الديانات السماوية إلى ذلك. ومع أنني قد كتبت كثيراً في هذا الكتاب عن الوصول إلى حياة لا حدود لها، فإنني أعتقد أن هذا الجزء عن الكينونة أهم درس يمكن أن تعلمه لأطفالك؛ لأنهم عندما يحققون الحاجات العليا، فلن يسألوا أبداً عن هدفهم والغاية من وجودهم في هذه الحياة.

وكما ستري في الجزء الأخير من هذا الفصل، لا يتوقف ارتقاء السلم عند الحاجات العليا المتعلقة بأساليب مساعدة الأطفال على صعود درجات السلم إلى أعلى مكان في هرم ماسلو، وهو ما سمّاه تحقيق الذات، وما أسميه حياة غير محدودة، إنه المكان حيث يعيش الأطفال كل لحظة من لحظات حياتهم في فضاء مفعم بالحياة، وخال من الاضطرابات العصبية، إنه مكان خاص يجعل الأطفال مفعمين بالدهشة والإثارة تجاه الكون كله، ومن ضمن ذلك أنفسهم.

قمة السلم؛ العيش اللامحدود

لقد أوردت في بداية كل فصل، باستثناء المقدمة، وصفاً مختصراً منقولاً من كتاب السماء هي الحد *The Sky's the Limit* للإنسان اللامحدود، ليكون لك هدفاً لتنشئة أطفالك على نسقه.

وسوف تجد لاحقاً تلخيصاً لكل وصف من هذه الأوصاف التي يتمتع بها الإنسان غير المحدود الذي يصل إلى قمة السُّلم، أي إلى المكان الذي يحقُّ فيه ذاته وهدفه ومهمته، ويشعر بالإثارة والتقدير بصفته جزءاً من هذا الكون.

الشَّخص اللامحدود محقق لذاته، ويشعر بحماس شديد تجاه نفسه، وليس لديه أيّ تحفظات أو مشاعر ندم، وهو يدرك أنّ الحبّ والاحترام لا ينالهما إلاّ الشَّخص الذي يستحقهما، لذلك فهو يحظى بحبّ واحترام حقيقيين من الذين يقدرّون انفتاحه عليهم جميعهم، إضافة إلى أنّه لا يبالي برفض الآخرين له.

الشَّخص اللامحدود يسعى وراء المجهول، وهو يحب الغموض، ويرحب بالتغيير، ومستعدّ لتجربة أيّ شيء في الحياة، هو ينظر إلى الإخفاق على أنّه جزء من عملية التعلم، ويؤمن أنّ النجاح يأتي طبيعياً مع إنجاز مشروعات الحياة، وممارسة الأشياء التي يهتم بها كثيراً.

الشَّخص اللامحدود يلاحق مصيره على هدي أنواره الداخلية، ويرى أنّ كلّ لحظة من لحظات الحياة خيار شخصيّ دون قيد، فهو لا يلوم الآخرين على أخطائه، أو يتهرّب منها متعللاً بما في العالم من ويلات، ولا يتكل على أيّ إنسان آخر لإثبات هويته أو قيمته.

الشَّخص اللامحدود يعرف أنّ الاستسلام للقلق لا يؤدي إلاّ إلى كبح الأداء، ولا يرى شيئاً في الحياة يستدعي الشكوى منه، إنّّه لا يستغل الآخرين بجعلهم يشعرون بالذنب، وفي الوقت نفسه لا يسمح لهم باستغلاله، هو إنسان تعلّم كيف يتجنب التفكير الذي يؤدي إلى القلق، إنّّه يحسّ بالسعادة سواء كان وحده أو بصحبة آخرين، إنّّه يجيد الاسترخاء والتسوية.

الشَّخص اللامحدود يستثيره الغضب، ولكن لا يعيق حركته، يحافظ على هدوئه عندما يبحث عن حلّ إبداعيّ ببناء، ويرى في العمل متعة ما بعدها متعة، إنّّه يسير مع التيار بدلاً من محاربة الحياة، ويتصرّف على أنّه سيّد نفسه في تفكيره وإحساسه وسلوكه.

الشَّخص اللامحدود يرى الماضي من منظور كميّة عيش الحاضر، ويرى المستقبل على أنّه زيادة في اللحظات الحاضرة، عليه أن يعيشها عندما تأتي. إنّّه يعيش الحاضر بانغمار تام، ويستطيع اكتساب خبرات الذروة من الأنشطة التي يمارسها جميعها تقريباً، إنّّه يفضل ألاّ تكون لديه خطة؛ كي يفسح مجالاً للتلقائية والعفوية.

الشخص اللامحدود يسعى إلى التمتع بوضع صحي (معافى) مع عدم الاعتماد على الأطباء وأقراص الدواء إلا في الحدود الدنيا، ويعرف أن بمقدوره الحفاظ على صحته وتقوية نفسه، ومحبب لخلقته البشرية، ويعجب من كيفية عمل جسده ووظائف أعضائه. يمارس التمارين الرياضية من أجل متعته البدنية، ويدرك أن التقدم بالعمر هو الحتمية للحياة والنمو، كما يدرك أن المرح وروح الدعاية ضروريان في مناحي الحياة كافة.

الشخص اللامحدود لا يتصف بالأنانية تجاه الأشخاص ذوي العلاقة به، إنه على يقين بأن أفضل طريقة لخسارة أي شيء هي التثبث به بشدة، وهو لا يعرف الغيرة، ويؤمن بالعمل التعاوني لحل المشكلات، ولا يزعجه أن يطلق الآخرون تسميات عليه أو على غيره. ويفرح بنجاحهم، ويفرض فكرة المقارنة والتنافس من أساسها، لا يوجد لديه أبطال محدّدون، ويدرك أنه يوجد مقابل كل بطل معروف ملايين الأبطال المجهولين، إنه منهمك في تقديم إسهاماته الخاصة، ولا يعيش الحياة من خلال خبرات الآخرين.

الشخص اللامحدود لا يعطي قيمة إيجابية للتطابق من أجل التطابق، وكي يكون نسخة عن الآخرين وفرداً في قطيع، وهو قادر على التعامل مع التقاليد والعادات بكل سهولة. إنه يتعامل مع الآخرين بصدق ونزاهة فطرية، ويطلق العنان لخياله في أي موقف، ويتعامل مع أي شيء في الحياة من وجهة نظر إبداعية.

الشخص اللامحدود يدرك هدفه في معظم جوانب الحياة، وتسمح نظرتة الشمولية للعالم أن يجد معنى ومغزى في أي مكان، وهو مدفوع أساساً بقيم وحاجات إنسانية عليا، ويعطي أفضلية لمعرفة الحقيقة، والجمال، والعدل، والسلام، ويقرر أنماط النمو اللاحقة التي سيتبعها، ويجعل الآخرين يحذون حذوه، ومع أن نظرتة عالمية لمعاني القيم والانتماء، فإنه يعتزّ بالإنجازات المحلية عندما تسهم في رفعة البشرية. وهو مدفوع عقلياً بغرائزه وفضوله الفطري لاكتشاف الحقيقة بنفسه في المواقف الحياتية الممكنة جميعها، يهتدي بأنواره الداخلية فيما يقوم به، ويمارس العمل الذي يهمله ويستهوّه، ولكن ليس بقصد الهرولة صوب الجوائز المالية الخارجية، فالمال بنظره ليس معياراً لقيمة أي إنسان، وإذا ما أصبح غنياً يوماً ما فسوف يكون ذلك عرضياً في أثناء سعيه وراء هدفه. ولأنه يرى العالم كله جميلاً ورائعاً، فإنه لا يجد حدوداً لتنوع هذا الجمال، إنه يرى الناس جميلين في حدّ ذاتهم، حتى وإن كانت أعمالهم قبيحة في بعض الأحيان، وهو مؤمن بقدرسيّة الحياة، وأن أرواح البشر كافة متساوية في الأهمية، وهو يعتقد بإمكان القضاء على الحروب، والعنف، والجفاف،

والأمراض، إذا ما قررت الإنسانية فعل ذلك، إنّه يقف حياته لتحسين حياة البشر جميعهم، وللقضاء على الجور من هذا العالم.

بعض الأساليب المحدّدة لمساعدة الأطفال على الوصول إلى قيمة السّلم وتحديد الهدف

قد لا يكون هناك اتفاق عام على أن الإنسان يمكن أن يحقق هدفه في الحياة من خلال الوظيفة، أو أنشطة التسلية والترفيه. وهناك قلة من الناس الذين قد يعارضون فكرة أن يكون لدى الإنسان هدف حتى يكون للحياة معنى، لذلك يجب غرس معرفة الهدف أو الغاية في نفوس الأطفال مبكراً، وتعزيز ذلك باستمرار في مرحلة البلوغ.

يرى معظم البالغين أنّ الطفولة مرحلة انطلاق ومرح، أو كما قيل ويُقال: «لا همّ دنيا ولا عذاب آخرة». ولكن اضطراب التّوحد، وفُصام الشخصية، وتعاطي المخدرات، والانتحار، تشير إلى أنّ بعض الأطفال يعجزون عن اكتشاف حلول ذاتية للمشكلات والصعوبات التي تعترضهم، ولذلك فهم يحتاجون إلى تدخلات محدّدة ومحكمة لجعلهم يعيشون حياة ذات معنى. إن هناك يافعين يعانون من تقدير الذات لا يستطيعون أن يجيبوا عن السؤال: لِمَ أتيتُ إلى هذا الكون؟ لهذا تجد أنّ إجاباتهم تشير إلى عدم إدراكهم لسبب وجودهم:

كي أحمل اسم العائلة العريقة، وأجلب الضخار لها.

كي أسليّ أُمي عندما تشعر بالملل.

كي أعطي الفرصة لأبي أن يعيش حياته من خلال مغامراتي.

كي أثبت أنّني ذو قيمة؛ حيث كنتُ مجرد حدث غير مرغوب فيه.

كي أعنتي بأشقائي الآخرين، أو بوالدي.

كي أؤدي دوراً معيّنًا (المهزّج، الطفل الطيب، الطفل الذكي).

كي أكون (الولد الذكر) لوالدي، لأنه سبق لهما أن رزقا بنتًا.

كي أكون طفل العائلة المحبوب.

إنّ أحد شروط الشّعور بالأمان في أثناء البحث عن هدف في الحياة هي أن يشعر الفرد بأنّه مرحب به في هذا العالم، فمع أنّ البالغين قد يكونون أكثر قدرة على تحمل الرفض لأنّ تقديرهم لذواتهم يظل قوياً بصرف النظر عن الأحكام الخارجية، فإن الأطفال يجب أن يشعروا بحبّ الآخرين لهم، وهم حساسون تجاه الطريقة التي نحملهم، أو نغذيهم، أو نتحدث بها إليهم. وقد أشارت

الدراسات إلى أنّ الطفل الذي لم يولد بعد يحسّ بالضوء، والصوت، والحركة، والكيمياء التي تربطه بأمه، وأنّ اتجاهات الأم من الحمل تغير البيئة المادية التي يتأثر بها طفلها طوال أشهر الحمل.

وأثبتت الدراسات أيضًا أنّ الجينات والبيئة يؤثران في الطفل الرضيع الذي يكون مشغولاً في فهم عالمه الجديد والتوازن معه؛ فكلما زادت الرعاية التي يتلقاها، والمعلومات الإيجابية التي يجمعها، زاد إحساسه واقتناعه بأنّ العالم الواقعيّ مكان مناسب للعيش فيه، ويصبح الطفل الرضيع أكثر قدرة على الأخذ والعطاء. وهناك بعض الأطفال الذين سيتعاملون مع هذا العالم المترامي بخوف وريبة، ونادراً ما سيحتكون به أو يتواصلون معه، وسوف يشعر بعضهم بالفضول لاستطلاع الأحداث المثيرة الجارية في عالمه، أما الأطفال اللامحدودون فإنهم يرون الحياة بهجة ومتعة ومرحاً منذ اللحظة التي يفتحون فيها أعينهم على هذا العالم، لذا فإنهم يقبلون على الحياة، ويحاولون التعلّم، وتجربة كل شيء قدر استطاعتهم.

وتسير هذه الخبرة للتعلّم من الأنشطة الممتعة بسهولة ويسر في البيئات المشجعة لمعظم الأطفال، ومع ذلك، فإنّ عمر (السنيتين الفظيعتين) وعمر (السنوات الثلاث الرهيبة) مرحلتان في حياة الطفل تتسمان بالتغيرات المزاجية، ونوبات الغضب عند الطفل، وترديده كلمة (لا) بكثرة ردّاً على محاولة الوالدين ضبطه وإبقائه تحت السيطرة، وهو يحاول الاستقلال وممارسة الأنشطة التي تستهويه.

وهنا تتشبّ معركة الإرادات؛ فمن المنطقيّ محاولة الآباء إفهام الأطفال مغزى القيود المفروضة عليهم من أجل صحتهم وسلامتهم، والوثام الاجتماعي، لكن المشكلة أنّ بعض الآباء لا يستطيعون التخلص من تصرفهم المتسلط، ويرددون بدورهم كلمة (لا) دون توضيح مبرراتها، مكتفين بقولهم: هذا ما أقوله، غير مدركين أنّ هذا الأسلوب المتسلط المبكر يمكن أن يؤدي في مرحلة لاحقة إلى تثبيط الأطفال، ومنعهم من تحديد أهدافهم.

يجد كثير من الناس صعوبة في تحديد هدفهم في الحياة، ويميل الهدف إلى أن يكون أقرب إلى كيفية تعلّم الإنسان أن يعيش (اتجاهات) منه إلى ما يقوم به الإنسان (الوظيفة / العمل)، فإذا كان الهدف تحقيق السعادة، فإنّ السعي وراء هذا الهدف لتحقيق الرضا النفسي يجب ألا يتعدّى على محاولات الآخرين ليكونوا سعداء أيضاً؛ لأنّ أخلاقيات الشخص اللامحدود وقيمه غير أنانية، وإنما هي أخلاقيات وقيم سمحة وكريمة. وحيث إن تيسير السعادة وتسهيلها يحقق الرضا النفسي، ويهيئُ

الظروف الخارجية للمساعدة على تشارك المستقبل، فإنَّ الأشخاص اللامحدودين يستمتعون بسعادة الآخرين، ويرون فيها إثراء لسعادتهم.

يؤكد كثير من الناس الأشياء المادية بصفاتها وسيلة لتحقيق حياة ذات معنى وقيمة، حيث يتحدد مستوى النجاح عندهم في تكدس الممتلكات، وحتى عندما تكون الأهداف سامية (مثل تحويل العالم إلى مكان أفضل)، وإذا كان التوجيه خارجياً، فيجب أن يكون دليل التقدم قابلاً للقياس مادياً.

وعلى النقيض من هؤلاء الناس، يؤمن الأفراد اللامحدودون بأنَّ العالم مكان رائع، وهم يرون أنَّ إدراك الهدف الذي لا يفهمه معظم الناس يكمن في الطريقة التي يفكرون فيها، وهو ما يؤدي في نهاية المطاف إلى إساءة استخدام عالمنا الرَّائع. وفي هذا السياق، فإنَّ أمامك فرصة لتغرس في نفوس أطفالك احترام الحرية والاستقلالية من خلال تصرفك، بناء على هدي أنوارك الداخلية، لتحقيق هدفك في الحياة. ولا شك في أنَّ النمذجة والقُدوة المناسبة أفضل الوسائل فاعلية لتكوين قيم أطفالك ومساعدتهم على فهم هذه المهمة، والعيش استناداً إلى القيم الموجودة في أعلى درجات سلم الحاجات الذي يؤدي إلى تحقيق الذات أو الحياة اللامحدودة؛ فالتصرف الأخلاقي ذو جدوى أكثر من الوعظ.

ومع أخذ هذه الأفكار في الحسبان، فإنني أقدم إليك الاقتراحات الآتية لمساعدة أطفالك على الالتزام بالقيم العليا، وإشباع حاجاتهم المتقدمة، مهما كانت أعمارهم ومواقعهم الحالية في هذا العالم، وأن يكون لديهم أهدافهم الخاصة بهم. وعندما يكتسبون بعض السلوكيات العليا، سوف ترى أطفالك أفراداً ناضجين يعرفون هدفهم، ولا يتشككون في قيمهم، وسوف يقضون حياتهم في مساعدة الآخرين على الاستخدام الأمثل لنعمة الحياة، وعظمة هذا الكوكب؛ من أجل القضاء على الحرمان، وتعزيز الاكتفاء الذاتي للأجيال القادمة. ومن هذا المنطلق فإنني أقدم الأساليب والمقترحات الآتية:

- في أثناء مساعدتك لأطفالك على إشباع حاجات البقاء الأساسية، امنحهم الحرية الكافية لاتخاذ قراراتهم بأنفسهم، ضمن الحدود التي تكفل سلامتهم: اترك لهم خيار الوقت الذي سيأكلون فيه أو يشربون؛ فهم عابرة فطرياً عندما يتعلق الأمر بغرائزهم؛ إنهم يعرفون ما يحبون، ومتى يريدون ذلك، ومتى لا يريدون؛ حتى الطفل الصغير جداً يعرف متى يشرب الماء، ومتى يبعد الكأس عن فمه، وبالفطرة أيضاً يعرفون الوقت الذي

ينامون فيه، والذي فيه يستيقظون، وهم قادرون على جعلك تعرف ما يريدون أيضاً. لذا تعامل معهم على أنهم كاملون، ويملكون ذكاءً كافيًا يمكنهم من العيش والبقاء، وعندما يكبرون أكثر، اسمح لهم بسيطرة كافية على تصرفاتهم الأساسية؛ فلا تجبرهم على تناول الطعام والنوم وفق مواعيد تحددها لهم. ولأنه ليس مطلوباً إلى الآباء أن يكونوا عبيداً لنزوات أطفالهم، فيامكانهم أن يسمحوا لهم بتحمل مسؤولية حاجاتهم الفسيولوجية، ومساعدتهم على أن يكونوا مستقلين في اتخاذ قراراتهم. وعند وصولهم إلى عمر ما قبل البلوغ، افسح لهم المجال لإعداد وجبات طعامهم، وتحديد مواعيد نومهم ضمن حدود معقولة، ومراقبة عاداتهم الغذائية. عندئذ، سوف تدهشون عندما ترون كيف يجيد الأطفال تلبية حاجاتهم البدنية والبيولوجية عندما يشجعون على إشباعها بصورة طبيعية، دون جدال أو شجار. وعندما تحد من سيطرتك عليهم، وتسمح لهم أن يتولوا مسؤولية أنفسهم ضمن حدود معقولة وصحية، فإن نظم الإنذار الداخلية المثالية سوف تساعد كل واحد فيهم على اختيار نظام متوازن للغذاء والنوم، وبرنامج للتمارين الرياضية، وغير ذلك من أنشطة، وإذا كنت تعتقد أنهم غير قادرين على تحمل مسؤولية حياتهم، فعليك أن تسأل نفسك هل السبب في ذلك هو أنك كنت تتولى هذه المسؤولية دائماً، أو أنك كنت تستخدم هذه الحاجات وسيلة للضغط والمساومة لجعلهم يحسنون التصرف كما تريد؟ وكلما سمحت لهم أكثر بتولي مسؤولية أنفسهم مبكراً، علمتهم أكثر كيفية صعود ذلك السلم بسرعة وبذكاء.

- شدد بأقصى ما تستطيعه على جودة حياة أطفالك، بدلاً من تعليمهم جمع الأشياء المادية وتكديسها؛ خذهم إلى الطبيعة، واجعلهم يتعلمون منها مباشرة، وعزز جهودهم للاستمتاع بالحياة، بدلاً من امتداح جهودهم لهزيمة الآخرين، أو جمع ما استطاعوا من الأشياء المادية. شجعهم على الانغماس في كل شيء يصادفهم، بأن تكون قدوتهم في اهتمامك بجودة الحياة، وعدم الانزعاج عندما لا يبدي الناس من حولك التقدير الكافي لما تقوم به. حدث أطفالك عن روعة غروب الشمس، حتى إن سخرُوا منه في بادئ الأمر، ويمكنك أن تعبر عن روعة الغروب بعبارات مثل: سبحان الله تعالى! لا أمل أبداً من النظر إلى تلك الجبال. أو: ما أعظم حبي للنظر إلى الطيور وهي تحلق في تشكيلات، إن هذا يجعلني لا أشعر بالضجر أبداً. مثل هذه العبارات تعلم الأطفال احترام نعمة الحياة، وإذا سمعتهم يقولون في كثير من الأحيان: ياها هذا ممل، أفضل اللعب بالحاسوب بدلاً من ذلك،

فلا تزعج، بل قل: أعرف أنك تحب اللهب بالحاسوب، أما أنا فهذا الغروب يثيرني مثلما تستهويك ألعاب الحاسوب تماماً. إنَّ ما أريد قوله هو ألا تحاول إقناعهم بأنهم على خطأ، بل اعترف ببساطة أنَّ لهم الحق في حبِّ ما يريدون، وأنك تبين لهم القدرة على الإحساس بجمال الكون دون أن يكلفهم ذلك شيئاً، فإذا فعلت ذلك فإنهم سوف يصبحون في النهاية قادرين على الاستمتاع بكلِّ شيء يصادفهم، وهذا جانب مهم لما يعنيه أن يكون لك هدف في الحياة.

- إذا كنت تريد أن يعرفوا هدفهم وأهميتهم طوال حياتهم فعلمهم أهمية هذه الجملة: لا أحد يعلم ما يكفي ليكون متشائماً: كن متفائلاً، حتى وإن كان الآخرون ينظرون إلى الجانب المظلم من الحياة. لا تلقِ محاضرات ولا خطابات مطوّلة، بل مجرد نظرة مستقبلية متفائلة، كأن تقول: أعتقد أنَّ لكل شيء سبباً، أمل أنك سوف تتعلم شيئاً مهماً من هذا الحادث. أنا أومن دائماً بأنَّ الأمور ستكون على ما يرام، حتى وإن كانت لا تبدو كذلك الآن. ومرة تلو أخرى، تستطيع أن تكون القدوة لمساعدة أطفالك على البحث عن الجوانب المشرقة، والنَّظر إلى النصف المملآن من الكأس لا النصف الفارغ. ولأنَّ التشاؤم كالدوى؛ فإنَّ المتشائمين في العالم يتعلمون اتجاهاتهم ممن حولهم؛ فالذين يرون العالم قاسياً ومريراً، غالباً ما تعلموا النَّظر إلى ظروفهم من هذا المنظور. لذا عليك قبل كلِّ شيء أن تكون المثال والقدوة لهم؛ إنساناً يشعر بالشكر للخالق تعالى لأنه على قيد الحياة، متفائلاً بتحسُّن الظروف لاحقاً، مؤمناً أنَّ على الإنسان تحمُّل مسؤولية مصيره بدل الرُّكون وترك الأمور تجري على هواها. وإذا فعلت هذا، فإنك تعبّر بذلك عن اتجاه تبنّاه، وهو اتجاه يمكن بكلِّ تأكيد تعليمه للأطفال بطريقة سهلة وفاعلة. إنني لم أقابل أحداً ممن يعرفون هدفهم جيداً يشعر بالتشاؤم، أو يتوقع أن تزداد الأمور سوءاً؛ فالعارفون هدفهم يؤمنون بتحسُّن الظروف، وهذا هو الإيمان الذي يجعل ما يتوقعونه يتحقق على أرض الواقع. وعندما تتوقع تدهور الأمور وتراجعها، فإنك في الحقيقة تساعد على الحدوث بالطريقة التي تتوقعها، لذا فإنَّ الهدف والتفاؤل والتوقعات الإيجابية تسير جنباً إلى جنب.

- علّمهم كيف يحمون (ظهر الغائب) وينبذون الغيبة والنميمة: إنها قضية في غاية الأهمية إذا كنت تريد أن يكتسب أطفالك هذه القيم العليا، ويلبوا الحاجات التي لخصتها في هذا الفصل؛ لذلك علّمهم عدم اغتياب الآخرين، أو التحدّث بسوء عن إنسان غائب،

والتزم أنت أيضاً بهذا السلوك الأخلاقي. وإذا كنت تريد لأطفالك إدراك معنى العدل، والحقيقة، والخير، والهدف، فعليك تذكيرهم بعدم اغتياب شخص غائب لا يستطيع الدفاع عن نفسه. ما يزرعه المرء يحصده؛ فمن يغتاب الآخرين اليوم، فإنه سيكون عرضة للغيبة غداً، وما يصدر عنه الآن ستردّ عليه بضاعته بعد قليل. في المقابل، إذا دافعوا عن إنسان غائب، بصرف النظر عما يقوله الآخرون عنه، فسوف يجدون من يدافع عنهم عندما ينتقدهم الآخرون في غيابهم، ويمكن للأطفال أن يتعلموا هذه القاعدة الأخلاقية منذ نعومة أظفارهم، وهذا أمر لا يتطلب موعظة مطولة من جانبك، بل يمكن الاكتفاء بقولك: لا أريد أن أسمعك تقول كلاماً سيئاً بحقّ أصدقائك؛ أعتقد أنّ من العيب التحدّث بسوء عن إنسان غائب. أو: لا أعتقد أنّ أيّاً منّا يحبّ أن يُذكر بسوء في غيابه، حيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فكّر ملياً في هذا الأمر. أو: أنتم جميعاً غاضبون من سارة، ولكنني أراها إنسانة رائعة، كلّ واحد منا له عيوبه، إنّنا نغضب أصدقاءنا أحياناً، ولكنني لا أقبل اغتياب سارة بسوء دون إعطائها فرصة الدفاع عن نفسها. في واقع الأمر، الأطفال يميلون إلى الغيبة والنميمة وهم في هذا العمر، ولكنها قد تكون تجربة مؤلمة لهم، لذا يجب تذكيرهم باستمرار بأنّ ذكر الآخرين بما لا يسرّهم يعدّ سلوكاً دنيئاً، وهو يقلل فقط من نزاهة من يفعل ذلك.

- امتدح الأطفال على الأحداث المتكرّرة في حياتهم: لا تفترض أنّ معرفة الهدف عبارة عن شيء سوف يكتسبونه في يوم من الأيام، لذا ذكّرهم ونفسك أن كلّ يوم من حياتهم مهم مثل الأيام الأخرى، وأنهم فعلاً يعرفون هدفهم منذ الآن؛ قل لهم مثلاً: إنّ تعلم الجمع والطرح مهمّ لكم، وأنا سعيد لأنكم استوعبتم هاتين العمليتين جيداً. أو: إهدؤك طبق الحلوى هذا إلى الجيران بادرة رائعة، سيكون العالم بخير لو أنّ كلّ واحد منّا اهتم بالآخرين كما تفعل. أو: إصلاحك ذلك المذياع عمل مدهش، أنا متأكد أنّ بإمكانك العمل في مجال التصليحات الآن لو أردت ذلك. أنت لم تكسب نقوداً لنفسك فقط، ولكن تخيّل عدد الأشخاص الذين ساعدتهم في الوقت ذاته. إنّ كلّ ما يفعله طفلك الآن يكتسب أهمية خاصة، وسوف يشعر الأطفال بقيمتهم في مرحلة لاحقة من حياتهم إذا علّمتهم تقدير قيمة ما يقومون به، ويمكن أن تعزز هذا الشعور بقوة إذا أظهرت لهم أنك تقدّر كثيراً أعمالهم وأعبابهم، وكيف أنهم يسعدون الآخرين عندما يقدمون خدمة لهم؛ فالطفل الذي يقدّم الحليب والحلوى لإنسان كبير في السن، سوف يرغب لاحقاً في المساعدة على إنهاء

المعانة في هذا العالم، لذلك يجب تشجيع هذا النوع من السلوك الهادف، والثناء عليه منذ السنوات الأولى من عمر الطفل، وعلى امتداد سنوات البلوغ.

- **ساعد الأطفال على فهم معنى أن الله تعالى خلق الناس سواسية؛ فأمامك فرصة مباشرة لمساعدتهم على فهم أن الناس جميعهم متساوون على هذا الكوكب، وأن أصحاب التفكير السامي لا يُصدرون أحكاماً مسبقة على الآخرين. كذلك، يمكنك تعديل سلوكهم غير المرغوب عندما تجد لديهم ميلاً إلى تشويه سمعة الآخرين وتحقيرهم، ويمكنك أن تشجعهم على التفكير بإيجابية تجاه كل إنسان، وتذكيرهم بأنه لا يد لأبي إنسان يعاني قلة الغذاء وانعدام الفرص في اختيار ولادته في جزء من هذا العالم. ويمكنك أن تجعلهم يشاركون منذ صغرهم في المشروعات الهادفة إلى مساعدة الآخرين، بدلاً من اتخاذ موقف المتفرج. اشرح لهم مغزى الالتزام منذ الصغر، واجعل هذا الهدف من الأولويات في تنشئتهم؛ إنها مسألة مهمة في بناء شخصية الطفل واهتماماته الإنسانية. لاحظ أن الأفراد الذين لهم هدف في الحياة يسعون إلى مساعدة الآخرين على معرفة هدفهم، وتلمس طريقتهم في هذه الحياة. إنهم لا يتعصبون على أحد، ولا يشوهون سمعته. في حين تجد أن كثيراً من البالغين تعلموا الحط من قدر الآخرين وازدراءهم، والحكم المتقدم عليهم بسبب انتماءاتهم العرقية أو الدينية، وسوف يستمرون في ممارسة هذا التعصب والكرهية فقط إذا شجعتهم على ذلك أو تجاهلت آراءهم. وإذا كان تفكيرهم يتصف بالتعالي، فبين لهم أن مكان وجودهم الحالي مجرد مصادفة ولادة ليس إلا. وأنه كان بالإمكان أن يكونوا من بين أولئك الناس الهائمين في الصحارى والبراري باحثين عن جذور النباتات طعاماً لهم؛ قدرهم أن يولدوا في تلك المناطق القاحلة. لذا علمهم أن يكونوا شاكرين لما هم فيه، وأن يمدوا يد العون للآخرين، بدل استجداء إطراء زملائهم واستحسانهم من خلال السخرية من الآخرين. ولكن إن علمتهم منذ الصغر التميّز على أنهم أفراد يدافعون عن حقوق الآخرين لا تحطيمهم، وإذا عرفوا أنك تشجع مثل هذا الموقف، فسوف يلتزمون بهذه المهمة طوال حياتهم. وعليه، فإنهم يحتاجون منك إلى دروس أخلاقية عن طريق الممارسة والفعل لتعلمهم كيف يعملون على ردم الهوة بين الذين يملكون والذين لا يملكون في هذا العالم. إن الطريقة الوحيدة لجعلهم يفعلون ذلك هي أن تكون مثلاً للإنسان ذي الأخلاق العظيمة، وأن تشجعهم على الدفاع عن هذه المبادئ، وامتداحهم على التمسك بها حتى لو نبذهم الآخرون وسخروا منهم إلى حين.**

• **كن يقظاً منذ البداية لمساعدة أبنائك على التحكم في انفعالاتهم، وتجنّب الضرب، أو إبداء مشاعر الكراهية والغضب:** بإمكانك أن تتخذ إجراءات إيجابية لضمان عدم تعوّدهم العنف، وبإمكانك مراقبة ما يشاهدونه على التلفاز؛ ففي السنوات الحرجة من عمرهم، لا تسمح لهم بمشاهدة أفلام العنف، أو مشاهد القتل والطعن والاعتصاب، أو العنف أيّاً كان نوعه. وعندما ترى الأطفال الأكبر سنّاً يضربون أشقاءهم الصغار، ويوجهون لهم الشتائم النابية، فعليك أن تتخذ إجراءً حازماً وسريعاً ومحدّداً، ويمكن أن تقول للطفل الذي يفعل ذلك: يمكنك أن تغضب من نفسك كما تشاء، أو حتى من شقيقتك، ولكنني لن أسمح لك أبداً بضربها أو بضرب أيّ شخص آخر، إنّ الضرب لا مكان له في هذا البيت، انصرف إلى غرفتك الآن، وتذكّر أنّ من غير المسموح بعد الآن ضرب أيّ كان وأنت غاضب. ويجب أن تقوم بإجراء الردع هذا في كلّ مرة يتكرر فيها هذا الفعل، على أن يفهم الطفل هذه الرسالة جيداً. بعد ذلك، يمكنك إبداء مشاعر الحبّ والحنان له، واحتضانه، مبيّناً له أنه ليس بذلك السوء لمجرد أنه يضرب إخوته. ومن الضروري أن نعمّق في أذهان الصغار أنّ الطريقة الهادئة المسالمة هي الطريقة الوحيدة للتعامل بوّد داخل العائلة، وفي هذا العالم أيضاً. وعليه: فإنّ التعنيف الحادّ مطلوب، وكذلك التذكير بأن الكبار لا يضربون الصغار، مثلما أن الوالدين لا يضربان الأطفال لمجرد أنهما أكبر منهم.

وأودّ الإشارة هنا إلى أنه لا يوجد ما يثبت أن الأطفال جميعهم، وخاصة الأشقاء، يجب أن يتشاجروا ويتضاربوا، ويصرخ بعضهم على بعض، إذ يمكن أن يتعايش الأطفال بسلام وحبّ وتعاون، وأن يتعلموا التّنفيس عن غضبهم وإحباطاتهم فيما يحيط بهم من أشياء، ولا يعني ما أقوله بأن ثورات الغضب ضارة وغير صحية، بل إنني بكلّ تأكيد أؤيد أن تسمح لنفسك ولطفلك بالتعبير عن الاستياء الذي يتراكم حتماً نتيجة اختلاط الناس بعضهم ببعض، ولكن ما أعنيه هو عدم توجيه هذا الغضب ضدّ أناس آخرين. إنّ هذا هو القانون الذي يسيّر هذا الكون، وهو قانون مهم لبقاء البشرية جمعاء، وكذلك لمساعدة الأطفال على صعود السّلم وصولاً إلى المثل العليا. وبعبارة أخرى، عليك أن تظل متأهباً لوقف العنف عند حدوثه، لكن هذا لا يعني مراقبة كلّ خلاف بسيط بين الأطفال، وإنما يعني أن تتدخل عند رؤية سورات الغضب، أو الضرب، أو عبارات الحقد والسّباب البذيء، وغير ذلك، فكل هذه السلوكات ليست سوى إحباطات يعبر عنها بطريقة غير مقبولة. وكلما أدرك الأطفال مبكراً أنّ مثل هذه السلوكات مرفوضة، توقفوا عنها، وتعلّموا كيفية السيطرة على انفعالاتهم. ومن

المهم أيضاً لك ألا تتجّر إلى شجارات الأطفال، مثلما اقترحت ذلك في القسم المتعلق بالأساليب في الفصل السادس.

• اقرأ لأطفالك مقتطفات من كتب تشجعهم على التفكير في حاجاتهم العليا، وأن ينمّوا في نفوسهم ذائقة جمالية وتقديراً للحب: اختر قصصاً هادفة، واقرأ فقرات منها، وناقشهم فيها. لقد كنت أقرأ لطفلي بعض القصص وهي في الثامنة من عمرها، ومع أنها لم تكن تفهم كل ما كنت أقرؤه لها، لكنها مع ذلك استبطلت أكثر مما كنت أتوقعه منها في مثل هذا العمر الندي. حاول أن ترفع الأطفال إليك بدل النزول إليهم؛ واجعلهم يستمعون إلى قراءات شعرية، ويشاهدون مسرحيات وأفلاماً هادفة، ويلعبون ألعاباً على الحاسوب، ويذهبون إلى المتنزّهات. ومما لا شك فيه أنهم سيتعلمون كثيراً من هذه الخبرات جميعها، وبخاصة إذا ما ناقشوها معك. وكلما زادت الألعاب والكتب التي توفرها لهم وتتحداهم، وتشجعهم على طرح الأسئلة، وتعلّم المثل العليا، زادت احتمالات تحقيقهم للحاجات العليا في مرحلة مبكرة من حياتهم، ولا تتردد في مشاركتهم التعلّم من هذه المثيرات، التي تؤكد القيم العليا الإيجابية والتطوير والتحفيز الذاتي، والإلهام. حافظ على هذا التقليد، واجعله جزءاً منتظماً من حياتك مع أطفالك.

شارك باستمرار في مساعدة الناس المعوزين، وأشرك أطفالك في هذه الجهود، وعندما تشتري لأطفالك هدايا في الأعياد، حاول أن تزيد من عدد هذه الهدايا، أو رزم الطعام، أو أي شيء تستطيع شراءه، وخذهم معك، وضع ما اشتريته في مراكز مساعدة الفقراء، وتحدث إلى أطفالك عن أهمية العطاء في حياة الإنسان. اشرح لهم أن الفعل هو ما يهم، وأن الاكتفاء بالشعور بالاستياء لا يحلّ مشكلة، وذكرهم — كما ذكرتك مرة تلو أخرى — بأن الأقوال وإبداء الرأي لا يحلّ معضلة، بل الالتزام والفعل؛ لذا أرشدتهم إلى ذلك الالتزام في مساعدة المعوزين الذين يعيشون في ظروف معيشية صعبة، وأن عليهم اقتطاع جزء من مصروفهم اليومي لمساعدة هؤلاء الفقراء. وإذا زاد عدد الأطفال الذين يلتزمون بهذه المواقف الإيجابية طوال سنوات الطفولة، فمن المؤكد أننا سوف نحدث ثغرة كبيرة في جدار المشكلات الاجتماعية التي تواجهنا.

• تذكر أن الأفكار الإيجابية تطلق في الدورة الدموية هرمونات أندروفين (هرمون في الدفاع) أكثر مما تطلقه الأفكار السلبية. وعليه؛ إذا علّمت أطفالك التفكير بطرائق سعيدة منتجة فإنهم في الواقع يقومون بشيء مهم للحفاظ على صحة أجسامهم. لذلك،

ذكّرهم بأنهم سيكونون في وضع صحي أفضل عندما يفكرون بطرائق مرحية بهيجة ومتفائلة، وأن الأفكار السلبية تزيد من احتمالات إصابتهم بالأمراض. وعلمهم أن ينظروا إلى الجانب المشرق من كل شيء، واشرح لهم كيمياء تفكيرهم، وساعدهم على معرفة أنّ الغضب مولد قوي لكل من القلق والتوتر، ومن ثمّ يتحول إلى قاتل. وبيّن لهم التّحسّن الذي يطرأ على حالتهم النفسية عندما ينظرون إلى الجانب المشرق؛ لأنهم يطلقون كيماويات إيجابية في دمهم من خلال الهرمونات التي تفرزها أدمغتهم.

• **كن واعياً دائماً لحاجة الأطفال إلى احترام شخصياتهم:** يتناول محتوى هذا الكتاب مساعدتك ومساعدة أطفالك على التميّز والتّفرد، وعلى الثقة بأنواركم الدّاخلية، وعلى أن تكونوا أفراداً مستقلّين لا جزءاً من قطع. لذلك، اغرس في عقولهم هذه الفكرة: إذا كنت مثل أيّ شخص آخر، فما الذي يمكن أن تعطيه؟ امدهم عندما يحاولون أداء شيء بطرائقهم الخاصة، حتى إن أخفقوا في ذلك إخفاقاً ذريعاً. شجّعهم على اتخاذ مسار مختلف عن المسار الذي يسلكه الآخرون، وحفّز جهود الابتكار والإبداع لديهم. إنّ الشخص الذي يؤمن بالقيم العليا، ويقدر حاجاته العليا، هو شخص لا يحاول التّكيّف مع القطيع، ولا يكون كأبيّ خروف يتغو كباقي الخراف، وبإمكانك تعزيز أهمية التّفرد والاستقلالية لدى أطفالك. وأنا أعتز أني قد تطرقت إلى هذه المسألة مرات عدّة في فصول هذا الكتاب، ولكنني أعتقد أنها تستحق الذكر مرة أخرى، وهي أن أفضل من يجتاز الطريق إلى الأماكن السامقة هم الأشخاص المستعدون للمخاطرة. فإذا كنت تحترم أطفالك وتشجّعهم ليكونوا متفردين في مختلف مراحلهم العمرية، مهما كانت النتائج والصعوبات التي قد تواجهها أو يواجهونها، فسوف يكونون على هذا المسار العالي، وسوف يجنون الثمار التي زرعوا بذرتها، إنهم الذين يعرفون هدفهم وطريقهم في الحياة، وليسوا التابعين ولا المقلدين.

• **لا تتهاون مع أيّ إساءة من أطفالك:** تصبح تربية أطفالك مصدرًا للسخط في كثير من الأحيان، لأنك مهما أحسنت تربيتهم، ومهما بذلت من جهد لتعليمهم مبادئ الحياة اللامحدودة، فإنهم في أحيان كثيرة يتصرفون ببذاءة ورعونة، واستهتار بمشاعر الآخرين. ولكن عليك أن تعرف أن لك الحق في إجازة أو استراحة، وأنه لم يحكم عليك أن تكون ضحية لسلوكاتهم غير السوية أحياناً؛ لذا ليس مطلوباً إليك تحمّل أيّ إساءة منهم أو

التسامح إزاءها، بل يجب أن تكون لديك خطة للتعامل مع هذا التصرف في حال حدوثه؛ فمثلاً بإمكانك الذهاب إلى غرفتك والاختلاء بنفسك، وتفيس غضبك ما دام أنك لم توجهه ضد أي إنسان آخر، وعليك أن تكون مستعداً لتقول لأطفالك بعبارات واضحة: إنك تعمل على تحقيق حاجاتك العليا، وإن من المهم أن تذهب في إجازة، وأن تكون وحدك بعيداً عنهم. ولا شك في أنك كلما جعلت الذهاب في إجازة باستمرار جزءاً من حياتك، زاد احترامكم وتقدير بعضكم لبعض، وعندئذ سيتوافر لك الوقت والمكان اللازمان لتحقيق حاجاتك العليا.

- لا تنس أبداً أن الأشخاص أكثر أهمية من الأشياء، وتذكر أيضاً أن الأفكار أهم من الممتلكات المادية بكثير، وأن السلام يستحق عملياً أي ثمن. ففي إحدى المقابلات الصحفية، قال الرياضي الأمريكي هارمون كليبرو (Harmon Killebrew) (1936 – 2011): «في أحد الأيام، صرخت أمي في وجهي ووجه أبي وأخي أيضاً؛ لأننا كنا نجز العشب كي نلعب بالكرة في الفناء الخلفي للبيت»، وذكر أنه لم ينس أبداً رد أبيه على أمه: «نحن نربي الأولاد وليس العشب»، وأنه استرشد بما قاله أبوه لتنشئة أطفاله فيما بعد. لذلك، تذكر هذا المبدأ، وتصرف بهذه الطريقة مع أطفالك لمساعدتهم على تحقيق حاجاتهم العليا في الحيوية، والنشاط، والدعابة، ومعرفة الهدف، والاستقلال الذاتي. وعندما تنزعج بسبب إتلاف بعض الأشياء المادية، تذكر أنه يمكن تعويضها، وأنك تربي أطفالاً، وأن سعادتهم وصحتهم ونجاحهم وتحقيقهم لذواتهم هي الغايات الحقيقية لتنشئة السوية. وهكذا، عليك في تعاملك مع أطفالك، ومع أطفال العالم جميعاً، أن ترى البشر أهم من الأشياء المادية بكثير.

- اسمح للطفل باعتماد نظامه الخاص في عالمه الفريد دون مقاطعة أو عرقلة لتلك الحاجة إلى النظام: لا تعني الحاجة إلى نظام أن تحققها أنت لأطفالك؛ إذ إن الإنسان يحتاج، منذ اللحظات الأولى في حياته، مروراً بسنوات البلوغ والشيخوخة، إلى الشعور بأنه يسيطر على بيئته، وإلى الإحساس بسيطرته على نظام حياته، لذا يجب أن يمر الأطفال بمرحلة فوضوية ليكتشفوا من خلالها هل كانوا يريدون أن تحفظ الأشياء بطريقة معينة، فهم يحتاجون إلى نشر ملا بسهم المتسخة في أرجاء الغرفة حتى يشعروا بسيطرتهم على عوالمهم إلى حد ما. وبالمنطق ذاته، إذا لم يضعوا ملا بسهم في سلة الغسيل في موعد

غسيل الثياب، فعلى الأم أن تسمح لهم بغسل ثيابهم بأنفسهم. وعلينا معرفة أن كل واحد منا، مهما كان عمره، يريد أن يكون له موقف مستقل بخصوص ما يدور في هذا العالم، وكما سمحت بهذه الحرية، سمحت لهم بإدارة شؤونهم بأنفسهم، إلا إذا كان تدخلك ضرورياً من أجل سلامتهم، وأنتك علمتهم أكثر أنك لا تقرّ فقط ميلهم إلى الاستقلال والحرية، بل وتشجيعهم عليه أيضاً.

- حاول أن تكون حياة أبنائك سلسلة بالحدّ من عدد القوانين المنزلية، وطبّق تلك القوانين فقط التي تبدو منطقية للمعنيين جميعهم. نتوق إلى البساطة على أنها حاجة عليا، وأطفالك ليسوا استثناءً من ذلك. وعليه؛ بإمكان الأم السماح لهم بأداء الأعمال المنزلية بطريقتهم الخاصة، وبوتيرتهم الخاصة، وبأبيّ ترتيب يريدون، ما دام أن النتيجة ضمن المعقول؛ مثلاً: إذا كان ابنك يدهن الجدار من أسفل إلى أعلى، في حين تعتقد أن عليه فعل ذلك من أعلى إلى أسفل، فاتركه يكتشف الطريقة الفضلى بنفسه. قل له: لم تدهن بهذه الطريقة؟ ولكن دون نقد، بل اقتراح فقط. في هذه الحالة، تبسط الأمور عليه، وتسهل مهمته إذا ما بقيت متفجعاً وصامتاً وتركته يتعلم من أخطائه. وبالتأكيد أنك لا تستطيع وضع رأسك الراسد بين كتفي مراهق؛ لقد تعلمت كل ما تعرفه من خلال الخبرة، والأمر ينطبق على أطفالك أيضاً؛ لذلك حاول أن تجعل الحياة بسيطة، وغير معقدة قدر الإمكان، واتركهم يجربون طرائقهم الخاصة، وتذكّر أنهم يحبون البساطة بصدق تملك تماماً. حاول أن تسهب في الشرح، واتركهم يحفرون بأنفسهم، ويتعلمون بالطريقة الصعبة، ويصلحون ألعابهم ودراجاتهم، ويحلّون واجباتهم بأنفسهم، إلا إذا استعانوا بك، حتى لا تجعلهم يتكلمون عليك في إنجاز مهامهم.

- تذكير مهم: اجعل الصدق حجر الزاوية في علاقاتك مع أطفالك؛ إذا كسر الطفل شيئاً في البيت وأخضى ذلك عنك خوفاً من التوبيخ أو العقاب، فإنّ السبب هو قواعد السلوك غير المكتوبة التي لديك، والتي لا تشجع على الصدق، ولكن إنّ أشعرت أطفالك أنهم أغلى شيء في حياتك، فإنهم لن يضطروا إلى الكذب في وجود مثل هذه الأم أو ذاك الأب. وأؤكد هنا أن توفير بيئة صادقة هي أكثر مكان صحي وآمن يمكن أن ينشأ فيه الطفل، ويمكنك أن تتذكر عدد الحالات التي كنت مضطراً فيها إلى الكذب لسبب أو لآخر، وما رافق ذلك من قلق وتوتر. إنّ المثل الذي يقول: «إذا كان الكذب ينجي فالصدق أنجي»، ليس مجرد

حكمة بسيطة، بل هو الصدق بعينه، لذا عليك أن تمتدح الأطفال لقولهم الصدق، وتحدث إليهم عندما يكذبون، ولا تعتقد أنك تسدي إليهم جميلاً إذا ما تفاوضيت عن كذبهم في حال تأكدك منه. لهذا كن صريحاً معهم لتجعلهم يلجؤون إليك إذا ما احتاجوا إلى مساعدة، بدلاً من تجنبك لأنهم يخافون من ردة فعلك تجاه قولهم الصدق. فإذا كنت تريد أن يطلبوا توجيهاً وإرشاداً منك عندما يواجهون مشكلة ما، فيجب أن يطمئنوا أن بإمكانهم إخبارك بأي شيء. وفي حال اكتشافك كذبهم، لا تنظر إلى الأمر كما لو أنه مشكلة تخصهم وحدهم، بل اسأل نفسك: ماذا عنّي؟ هل أوجدت بيئة آمنة لا يخشى فيها طفلي قول الحقيقة لي؟ ومن ثمّ ابدأ بتقويم الخلل. تحدث عن الحاجة إلى الصدق في نجاح علاقاتك بهم، وشرح لهم قيمة النزاهة، وكيف أنّ اعتراف الإنسان بإخفاقه أفضل وأروع من محاولة إقناع الآخرين بغير ما أنت عليه. لذلك، فإنّ أعلى حاجة على سلّم التطوير الذاتيّ هي الحاجة إلى الصدق، وهذا يتطلب منك ألا تخشى الصدق، وأن تقول لأطفالك صراحة: أعدكم أنني لن أعاقب أيّاً منكم لقول الصدق، وإذا واجه أحدكم مشكلة كبيرة كيفما كان حدوثها، فأريدكم أن تعلموا أنّ بإمكانكم طلب مساعدتي، وربما لن أقرّ ما فعله أحدكم، ولكنني سأحترمكم دائماً لقولكم الصدق. لا تكذبوا عليّ، وبالمثل، لن أكذب عليكم أيضاً.

- **علم أطفالك تقدير كل شيء حي واحترامه:** فإذا رأيتهم يقتلون النمل لمجرد المتعة، فأوضح لهم قدسية الحياة، وكيف أنّ لهذه النملة الحقّ في العيش دون أن تتعرض للقتل لمجرد المتعة، وإذا رأيت طفلك يحاول قتل فراشة دخلت البيت، فأظهر له احترامك للحياة، بأن تسمح للفراشة بالطيران إلى خارجه. صحيح أنني لا أرى ضرورة المغالاة بهذا الخصوص، لكنني أرى أنّ الأطفال بحاجة إلى تعلّم كيفية تقدير مخلوقات الله تعالى جميعها واحترامها. ففي دراسة للناس الناجحين، وجد ما سلو أنّ الشيء المشترك بينهم دون استثناء هو تجيلهم الكبير لقدسية الحياة، لذلك علم الأطفال أن يراعوا احترام حياة كل شيء حيّ مثلما يحترمون حياتهم، وأن يساعدوا على تخليص أيّ كائن حيّ إذا كان في ورطة ما. إنني أتذكر حتى يومنا هذا، شيئاً فعلته على شاطئ قبل سنوات عدّة، رأيت سمكة قذفها الموج إلى الشاطئ، وكانت على وشك الموت، فالتقطتها وأعدتها إلى البحر، ولكن الأمواج كانت قوية فقدفت السمكة إلى الشاطئ مرة أخرى، فما كان مني إلا أن حملت السمكة بيديّ، وأخذتها إلى ما وراء منطقة الموج وبقيت أحتها على البقاء في الماء. وبعد عشر دقائق، استعادت السمكة قوتها، واندفعت تسبح ثانية في عمق البحر. قد تبدو هذه

القصة سخيفة وغير مهمة، لكنني شعرت كما لو أنه قد قدر لي أن أكون المنقذ لتلك السمكة. وما أزال أذكر حتى هذا اليوم، الشعور بزهو الانتصار والرضا الداخلي لبقائي مع تلك السمكة حتى أنقذتها. لذلك عندما يؤمن أبناؤك بقدسية الحياة، سيدركون الهدف من وجودهم في هذه الدنيا. فإذا رأيت طفلك يتصرف تصرفاً قاسياً، فاسأله بلطف: هل تعتقد أنّ للخنفساء الحقّ في الحياة؟ أو لماذا يجب أن يموت ذلك العنكبوت الصغير لمجرد أنك تستمتع بقتله؟ ثم بيّن له أنّ القتل لمجرد القتل يعدّ انتهاكاً لنعمة الحياة التي منحنا الله تعالى إياها طوال وجودنا على هذا الكوكب الرائع.

كانت هذه بعض الأساليب التي أوصي باستخدامها في تعاملك مع أطفالك مهما كانت أعمارهم الحالية. وتتناول الحاجات العليا، التي كتبت عنها في هذا الفصل، غرس اتجاه خاص عند أطفالك، إلى جانب تحديد الهدف؛ لذا عليك أن تحرص على تعريضهم يومياً للجمال في كل شيء يرونه، وللطيبة الفطرية في الناس جميعاً، ولأهمية التفكير بطرائق إيجابية ومثيرة ومحترمة. ويعدّ هذا الاتجاه الذي كتبتُ عنه شرطاً أساسياً للنموّ، والإيمان بأنّ هذا العالم مكان عامر بالخير، وأنّ البشر رائعون، وأنّ كلّ شيء في الحياة معجزة؛ وهذا ما يعنيه تحديد الهدف بكلّ دقّة. وعندما تجسّد هذه الأفكار الهادفة وتؤمن بها، وتبدأ في جعل أطفالك يحققون حاجاتهم العليا، فسوف يصبح الهدف أمامهم على أوضح ما يكون، وسوف يجسّدون الحقيقة ويعيشونها بدلاً من البحث عنها.

